

رشيد الضعيف

أوكي مع السلامة

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

رشيد الضعيف

أوكي مع السلامة

تركتني هامة فجأةً دون إنذار، بعد علاقة دامت سنتين كنتُ أظنّها أبديّة.

تهرّبتْ منّي عدّة أيّام، ظننتُ خلالها أنّها تُخفي عنّي مرضاً خطيراً (وهو ما شغل بالي!) ثمّ اتصلتْ بي هاتفيّاً، وأبلغتني أنّها لن تستطيع الاستمرار في علاقتها معي بعد الآن، لأنها بحاجة إلى شخص يناسبها أكثر، وقد وجدت هذا الشخص الذي يناسبها أكثر.

كان هذا الاتصال صدمةً يتصدّع لها جبل، لو أنّني لم أستوعبها في ثوان، (استوعبتُها مؤقّتاً بالتأكيد) وكان السؤال الذي ألحّ عليّ، والذي وددتُ أن أسألها إيّاه، بعد هذه الثواني القليلة، هو لماذا لم تبلغني قرارها وجهاً لوجه، لكنني امتنعت عن ذلك. بيد أنّها أدركت ما جال في خاطري، فأجابتني بقولها إنّها فضّلت إبلاغي قرارها بالهاتف، لا وجهاً لوجه.

ـ «بفضّل هيكْ!» قالت. (بالمحكيّة طبعاً.)

لم أسألها من هو هذا الرجل المناسب، وما هي صفاته، ولم ألجأ إلى تلك «الولدَنات» التي يعمد إليها المُغرَم المفاجأ المصدوم. أجبتها فقط بـ: «أوكّي مع السلامة»! وأنهيتُ المخابرة.

أنا الذي اختصرتُ الكلام إذن، وأنا الذي أنهيتُ المخابرة بدون تردّد أو مماطلة، ففوجئتْ بهذا السلوك الذي لم تكن تتوقّعه، إذ كان من الطبيعي بالنسبة إليها أن يَسأل العاشقُ المغدورُ عن سبب هجر الحبيب الغادر، وأن يعاتِبه ويلومه، وأن يحاول الحصول منه على فرصة أخرى... وما إلى ذلك، لكنّ لعبة الشدّ والإرخاء هذه ليست في طبعي، فحين كنّا مراهقين وكان رفاقي يردّدون بالفرنسيّة هذه الحكمة: «اتبع المرأة تهرب منك، واهرب منها تتبعك» كنتُ أشعر بالغربة عنهم.

هذا الاتّصال من هامة ذكّرني فوراً بعيسى.

لم يبح لي عيسى بشيء عن سبب طلاقه، بعد زواج دام سنةً أو أكثر قليلاً، رغم الصداقة التي كانت تجمعنا، لكنّه بعد طلاقه بعدّة أشهر، وكان قد بدأ محاولاته الجدّيّة للتوقّف عن التدخين، صار يردّد أمامي ما قاله الفيلسوف الفرنسي الشهير جان بول سارتر (ـ بأسى!) ذات يوم: «لستُ سوى أداة إمتاع للنساء!».

وكان عيسى يردّدها بالفرنسيّة هكذا:

Je ne suis qu'un pauvre masturbateur de bonnes femmes!

وبضمير المتكلّم هذا (Je)، كان عيسى مُوقناً أنّ جان بول سارتر لا يقصد نفسه وحسب، بل يقصد الرجال جميعاً من كلّ جنس ودين. هذه «أنا كونيّة» كان يقول، لا «جمعيّة» فقط.

وكان عيسى يلومني دائماً لأنني لا أُولي انتباهاً إلى ما يقوله لي، خاصّةً أنّ تعاقب الأحداث كان غالباً ما يُعطيه الحقّ في لومه، فهو الذي تنبّأ مثلاً، عام ١٩٧٧ بأنّ الاتحاد السوفياتي سينهار بعد عشرة أعوام على الأكثر. وقد هزأتُ منه مرّةً وسمّيتُه «الله!»، لأنّ نبوءات بهذه الخطورة، لا يُوكلها الله حتّى إلى مختاريه من الأنبياء والرسل، بل يصرّح بها إلى الناس مباشرة دون وسيط، فما كان منه إلاّ أن ردّ عليّ غاضباً ومتحدّياً فقال: «إبدأ بالعدّ منذ الآن! عشر سنوات!».

وعيسى هو الذي قال لي إثر حادثة عين الرمّانة، في ١٣ نيسان عام ١٩٧٥:

ـ «علِقِتْ!».

فقلتُ له بشيء من نفاد صبر، بعدما كرّرها عليّ عدّة مرّات:

ـ «أكيد عِلْقِتْ!» أتظنّ نفسك تكتشف البارود؟ فمن لا يسمع أصوات الرصاص والانفجارات في كلّ مكان من بيروت؟

فعاد وقال لي وبمزيد من الجدّيّة:

ـ «لأ! علْقِتْ!».

كان يحاول تحميل هذه الكلمة، بطريقة لفظه لها، معنى آخر أشدّ. كان يريد أن يقول إنّ ما نشهده اليوم من اشتباكات، هو بداية

انفجار كبير سيدوم طويلاً، سنواتٍ أو عقوداً، مع كلّ ما يعنيه ذلك من آلام ودمار وقفز في المجهول، وإنّ «اللبننة» ستصبح صفةً مرادفة للانقسام والانتقام والتدمير الذاتي والخراب العظيم.

نعم يا عيسى! فأنت الذي كنتَ دائماً على صواب، وها هو اتصال هامة يعطيك الحقّ في لومك من جديد.

وتذكّرتُ أيضاً بالمناسبة ذاتها، أي بمناسبة تصال هامة، ما قاله لي صديقي حسن ذات يوم، قبل عشر سنين أو أكثر (ما هكذا يموت الأصدقاء يا حسن!)، قال:

ـ أتعلم أنّ ثمانين في المئة من النساء يبلغن الأورغاسم «من برّا» وعشرين فقط منهنّ يبلغن «من جوّا»؟ فسألتُه:

ـ ماذا تقصد؟

أجاب:

ـ إنّ ثمانين في المئة من النساء لا يبلغنَ ذروة لذّتهنّ إلاّ بالحكّ على البظر، وإنّ الأقليّة منهنّ فقط يبلغنها بالولوج!

فقلت له:

ـ لا!

فظنّني أدّعي الجهل. فقلت له:

ـ صدقاً لا! لست على علم بذلك!

لم أكن على علم بهذه الإحصاءات، رغم أنّ عمري كان بلغ حوالي نصف قرن من الزمان. من الزمان ذي الوزن الثقيل!

قال:

ـ وبحسب تجربتك؟ ألم تجد أنه من النادر أن يقع الرجل على امرأة تبلغ من «الجوّا»؟

قلتُ:

ـ لا! لم يصدف أن التقيتُ امرأةً من غير هذا النوع!

فقام عن كرسيّه في المقهى وقبّل ثيابي وتبارك منها، كأنّه مؤمن مسكين وجد نفسه فجأةً في حضرة وليّ من أولياء الله الصالحين، وقال:

ـ أنتَ أسعد الكائنات على وجه البسيطة! الآنَ الآن بتُّ أفهم سرّ مجدك!

ـ مجدي؟ تساءلتُ بدهشة.

قال:

ـ بلى مجدك!

قلتُ:

ـ لكن انتبه! أنا لم أعرف في حياتي جيشاً من النساء ليُعتدّ بتجربتي، وعدد النساء اللواتي عرفتُهنّ قليل جدّاً، أقلّ من عدد أصابع اليد الواحدة. (وكدتُ لولا الحياء أضيف: «ـ بكثير!»).

قال:

ـ هذه تفاصيل ليست بذات أهمّية. المهمّ هو أنّك نجوت!

أتذكّر الآن بأسى ما قاله لي عيسى، وما قاله لي حسن، لكنّني أتذكّر في الوقت نفسه، أنّ هامة كادت أن تنهرني مرّةً حين فاجأتني أحاول ابتلاع حبّة فياغرا. قالت لي:

ـ لا داعي لتناول هذه الحبوب.

وأذكر جيّداً أنّها قالتْ لي حرفيّاً (بالمحكيّة طبعاً):

ـ «ما إلْها لزوم!».

لم أكن بعدُ قد دريتُ أنّ الولوج وإن كان يمتعها، لا يكفيها حتّى تبلغ سعادتها بالكامل. بل ربّما كان لا ينفع معها في هذا الخصوص.

لكنّني أذكر أنّها قالت لي أيضاً إنّ المسألة ليست في هذا.

فأين المسألة إذن؟

وقد تركتني هامة في ظرف غير ملائم. تركتني بينما كان لبنان بالذات يُنذر بأن يتركني، إذ كنّا صرنا في بداية حرب أهليّة غير معلنة، على الطريقة العراقيّة، وكنّا على أبواب حرب تشنّها إسرائيل على لبنان للقضاء على «حزب الله»، وأنا لا أحمل مثلها جواز سفر أجنبيّاً، وهذا يعني أنّ لبنان إذا ما تركني وأردتُ تركه فإنّني لن أستطيع.

لكنّ بيت القصيد ليس هنا، بل هو في أنني لم أكن شابّاً مُقبلاً على الحياة، ولا رجلاً في أواسط العمر، بل كنتُ على عتبة الستّين!

نعم على عتبة الستّين! وكانت هي قُبيل الأربعين.

ـ «بَعذُني بالثلاثينات!» كانت تقول بدلال، ممازحةً، مُنقِصَةً من عمرها.

وليس هذا فقط، بل إنّ هامة تركتني بعد أسبوع فقط من خبر ورَدني عن والدتي أنّها بدأت تنسى. وقد صدمني هذا الخبر فأسرعتُ إلى زيارتها على الفور، بعد انقطاع دام عدّة أسابيع، وتحدّثتُ في موضوعها مع أختي غوى التي طمأنتني بأنّها تهتمّ بها، وبأنّها طلبت من ابنها أن ينام عندها، خوفاً من أن تبادر إلى شيء تؤذي به نفسها، كأن تنسى الغاز مثلاً يتسرّب طويلاً قبل أن تشعله، أو كأن تنسى قطعة ثياب وضعتْها على مدفأة الكهرباء لتنشف، وما إلى ذلك من نسيان. وكان ابن غوى يحبّ جدّته التي ربّته بمعنى ما. وكانت والدتي سعيدةً جدّاً بهذه الرفقة وبهذا الأنس. لم تكن تطلب أكثر من ذلك. اطمأننت وقتها إلى حدّ بعيد. اطمأننت إلى العناية التي تلقاها والدتي من أختي، لكنّ مسألة النسيان شغلت بالي، لأنني كنتُ أشكو من ضعف في الذاكرة يتزايد، وإنْ ببطء شديد يكاد ألاّ يُلاحظ.

أمّا صحّتي فكانت جيّدة جدّاً ولا تشكو من شيء. كنت آكل وأشرب وأنام وأمشي وأعمل بدون مشكلة. وكنت أبول أيضاً بدون مشكلة. وكانت دقّات قلبي منتظمةً انتظامَ ساعةٍ يحقّ لسويسرا أن تفخر بها.

أمّا شَعر رأسي فكان قد تساقط من زمان، لكنّني لم أكن أخجل من ذلك، لأن الصلع ليس عيباً وإن كان الشعر على الرأس أفضل منه. وكانت حكمتي في هذا الموضوع أنّه ليس

لأحد يدٌ في زرقة السماء، وليس عليّ أن أحمّل الأمر أكثر ممّا يحتمل.

ثمّ إنّ هامة لم تكن منزعجةً من صلعي، بل بالعكس، كانت تُشعرني بأنّ رأسي كما هو، بدون شعرة عليه أو وبرة، ثمين جداً، وكانت تسرّح يدها عليه وتقبّله، وكانت تمسح العرق عنه بلسانها، بل كانت تعتمده أحياناً في طُرُقها المبتكرة لبلوغ متعتها.

حين أتذكّر تلك الأوقات...

هذا ما دوّنته غداة لقائي الأوّل بها:

«سمراء بقامة سَبلة قمح أو أكثر قليلاً.

باسمة، خفيفة الظلّ.

لا يفيض وزنُها عن لازمه غراماً واحداً.

تتنقّل كالنسمة أو كالبسمة.

أو كراحة البال.

عزيزةٌ،

كأنها عابرة على الدوام.

من النساء من إذا أحببتَ أخفيتَ حبّك لهن خفَراً، أمّا هي فإذا ما أحببتَها أزهرت الطرقات، وتدلّت الورود من على الشرفات.

كالفخر!»

هكذا بدت لي إذن ونحن ذاهبان معاً إلى المقهى، بعد أن ألقيتُ

محاضرةً في الجامعة الأميركية في بيروت، عن تجربتي في الكتابة.

دعتني إلى هذه المحاضرة لجنة من طلاّب الجامعة القلائل الذين يتخصّصون في الآداب العربيّة. كانت هامة واحدةً من هؤلاء الطالبات الثلاث اللواتي زرنني في منزلي لإبلاغي الدعوة والتفاهم على التوقيت والموضوع، وكانت أكبر من زميلتيها بوضوح جدّاً، تكاد أن تكون بعمر أمّيهما، ما استدعى التوضيح، فأخبرتْني أنّها مع بداية الحرب عام ١٩٧٥، غادرتْ لبنان مع عائلتها إلى لندن، حيث التحقت بالمدرسة ثمّ بالجامعة، وبعد أن تخرّجتْ عملت هناك عدّة سنوات في عالم البنوك والمال، قبل أن تنتقل إلى نيويورك، حيث تزوّجت من شابّ إنكليزيّ، ظنّتها أوّلاً ليبيّة (كان يخلط بين لبنان وليبيا ـ حيث عمل والده في شركة نفطيّة.) وأنجبت منه بنتاً، ثمّ طلّقته، وعادت أخيراً وحدها إلى بيروت.

عادت إلى بيروت حائرةً مشتاقةً، بعد خمس وعشرين سنة من الغياب، وأغرمتني بها غراماً كان فعله فيّ كفعل عبوة من الـ«تي أن تي» الشديدة الانفجار، ثمّ تركتني تتآكلني المشاعر التي أكرهها والتي نشأتُ على ضدّها، كالغيرة والرغبة في الانتقام والشعور بالنقص والكبرياء الجريحة والأنا المُهانة، وما إلى ذلك من مشاعر تفوح منها روائح العفن.

وأنا بالمناسبة شخص معتدل المزاج في كلّ شيء، لا أحبّ بقوّة ولا أكره بقوّة، ولم أعرف يوماً مشاعر جارفة تجاه شيء أو أحد، لا في السياسة ولا في الدين، ولا حتّى تجاه أنثى، لأنّني بكلّ بساطة أخجل من ذلك. أخجل من الانجراف.

وبعد انتهاء المحاضرة خرجتْ تودّعني مع الآخرين، لكنّها وبخلاف

الآخرين تابعتُ طريقها معي، وعرضت عليّ أن نتناول «شيئاً» في مقهى قريب «إذا كان معك وقت!».

قبلتُ عرض هامة لكنّ المدهش أنّني قبلته وفي أعماقي أنّني أقبل عرضاً لإقامة علاقة. لا علاقة مغامرة عابرة، بل علاقة حبّ دائم. وكان قبولي هذا العرض من باب مبادلتها الحبّ بالحبّ والرغبة بالرغبة.

قبلتُ عرض هامة بسرور وشكرتها عليه، وردّت على هذا الشكر بعبارة باللغة الإنكليزيّة لم أفهم منها كلمةً واحدةً، ولم أميّز منها حرفاً واحداً. فهمت شيئاً واحداً فقط، وهو أنّ ما نطقت به كان باللغة الإنكليزيّة. فلم أردّ بشيء، لأنّه لا يمكنني أن أردّ على شيء لم أفهمه، لكنها سرعان ما انتبهت فاستدركت معتذرةً وأعادت ما قالته لي بالعربيّة.

ـ لا لزوم للاعتذار! قلت لها.

وقد تمنّيت بالفعل ألاّ تعتذر.

أنا حذِر بطبعي ولا أحبّ الأوضاع المحرجة. وأنا أعرف أنّ طلاب الجامعة الأميركيّة يرطنون بالإنكليزيّة، وأعرف أنّ الكثير منهم لا يقيمون اعتباراً لأي لغة أخرى غير الإنكليزيّة، لأنّهم مكتفون بها، وهذا سلوك أميركيّ ربّما، يُنقل إليهم عن طريق اللغة ذاتها، لا أدري كيف، لكنني أعرف أنّهم لا يعتبرون أنّ الجهد الذي يُبذل لتعلّم لغة أخرى يستحقّ التقدير، أو يستحقّ التفاتةً على الأقلّ. فأنا أعرف الفرنسيّة لكنّ هذه المعرفة لم تعد تنفع الآن، وفي هذا المكان

بخاصّة، فالزمن تغيّر، ولبنان لم يعد تحت الانتداب الفرنسي، يوم كانت الفرنسيّة اللغة الفضلى، ويوم كان الساعون إلى العُلى من أهل الأرض تتلعثم ألسنتهم بالعربيّة حتّى لا يُطعن في إخلاصهم للفرنسيّة. هذا الزمن تغيّر الآن، وما من عجب، فالتغيّر في طبع الزمان.

ثمّ قلتُ لهامة أيضاً:

- إنّني أعرف الإنكليزيّة لكنّني بحاجة إلى قليل من الممارسة حتى أستطيع استخدامها.

وندمتُ فوراً على ما قلت، لأنّني بقولي هذا أعلنتُ انتمائي إلى «خندق» الذين يعرفون الإنكليزيّة، وكأنّني بهذا الإعلان أصبحتُ منهم، لا يفرّقني عنهم سوى أنّني بحاجة إلى بعض الدعم منهم. وأحسستُ أنّ كلامي كان بلا داعٍ، وأنّني برّرتُ لهم سلوكهم واعترفت لهم بالتفوّق. وأنا ما زلتُ خارجاً من محاضرة، كاتباً معتبراً ذا شان، يُدعى إلى أهمّ المنابر في البلد.

ثمّ إنّني عربيّ وكاتب بالعربيّة، فكيف أعترف للغة أخرى بأفضليّتها على لغتي التي أتنفّس بها، والتي هي أداة بلوغي ما هو أبعد من المجد والشهرة، إنّها أداة بلوغي الخلود! نعم، الخلود بالذات! ثمّ إنّني أُتقن اللغة الفرنسيّة وأنا فخور بها، لأنّها لغة آداب وفنون وحضارة عظيمة. ثمّ إنّ فرنسا لم تعد بلداً مستعمِراً وإنّ حروبنا معها تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى تاريخ، إن لم تكن قد تحوّلت بعد. أضف إلى ذلك أنّ فرنسا رفضت مشاركة أميركا في احتلال العراق.

لكنّنا تخطّينا بسرعة هذه الحادثة، التي لم تنتبه هامة إلى أبعادها

بالتأكيد، وتابعنا سيرنا نحو الـ«سيتي كافيه»، وهو أحد المقاهي الراقية في المدينة، والذي يقع وراء دارة الرئيس رفيق الحريري وعلى مقربة من الباب السفلي للجامعة اللبنانيّة الأميركيّة التي تدرّس بالإنكليزيّة، والتي بالإنكليزيّة أيضاً وأيضاً يرطن طلاّبها. إنّه إذن مقهى يليق بهذا اللقاء ويناسبه.

بين الجامعة حيث ألقيت المحاضرة ومقهى الـ «سيتي كافيه» مسافة ربع ساعة بالسرعة التي كنّا نسير بها، وأثناء هذه الدقائق الخمس عشرة نقلتني هامة إلى الضفّة الأخرى.

كان ما حدث شيئاً أقرب إلى المعجزة منه إلى أي شيء آخر.

«هامة قادرة بدون أن تدري على أن تُحدِث معجزة» (هذا ما دوّنتُه غداة لقائنا) بحيث إننا حين وصلنا إلى المقهى كنت بدأت أشعر أنني أعيش حدثاً خطيراً، أنساني خطر الحرب الإسرائيليّة الداهمة على لبنان، وأنساني الأحداث الخطيرة التي كان يعيشها لبنان والتي كانت تضعه على أبواب حرب أهليّة طاحنة: القرار ١٥٥٩ كان قد صدر عن مجلس الأمن الدولي، وقضى بانسحاب الجيش السوري من لبنان، وبتجريد كل الميليشيات من السلاح وحصره في يد الشرعية اللبنانيّة، ما يعني تجريد «حزب الله» من سلاحه، وكنّا على عتبة مسلسل تفجير السيّارات المفخّخة، والاغتيالات الذي بلغ أوجّه باغتيال الرئيس رفيق الحريري دون أن يتوقّف عنده.

أخبرتني ونحن في الطريق إلى المقهى، أنّها حين قرأت كتابي الأخير، وهو أوّل كتاب قرأته لي، رسمت لي صورة في ذهنها، وكانت موقنةً أنّها لو رأتني فيما بعد لعرفتني. وهكذا كان! لقد

أكّدت لي أنّها حين زارتني في بيتي مع زميلاتها، عرفتني فوراً. أكّدت لي أنّها حين فتحتُ لهنّ الباب، خفق قلبها من الدهشة. كنتُ مطابقاً تماماً للصورة التي رسمَتْها لي انطلاقاً من قراءتها لكتابي. بالتفصيل! من لون البَشرة إلى لون العينين، ومن الوجه إلى القدمين. حتّى صوتي فإنّه كان مطابقاً بالكامل للصوت الذي تخيّلتْه!

أحسستُ أنني تُعتِعتُ بعد هذا الكلام، فاستعجلتُ الوصولَ إلى المقهى لأجلس وأستعيد توازني.

هذا ما دوّنتُه أيضاً غدة ذلك اللقاء:

«هامة «تدبّ دبيباً في العظام» كخمرة الأعشى، وتتمشّى في المفاصل كخمرة أبي نواس.

هامة كأس عرق تشربه على مطلّ في جبل لبنان، وأنت مُشرف على الدنيا.»

ودوّنتُ أيضاً:

«أقفلتْ خطّ هاتفها.

أرادت أن تقطع علاقتها بالدنيا لتنصت إليّ فقط.

كانت تُنصِت إليّ بكلّ جسدها وأنا أتكلّم. كان جسدُها يمتصّ كلامي، كما يمتصّ الماءَ رملٌ أحرقته الشمس. كان كلامي يتخلّلها. كان كلامي يُنضجها، وكان نضوجها يزداد كلّما أضفتُ إليها كلاماً.

كان كلامي حطباً يُوقد عينَيها.

وحين كنّا نتلامس عفواً ونحن نسير كنت أشعر بتيّار قويّ ينتقل منها إليّ، رغم أنّنا كنّا نلبس ما يغطّي أيدينا.»

قالت لي بعد أسابيع، إنّ حياتها اكتملت بهذا اللقاء، وإنّها لو ماتت بعده لما كان الموت عنى لها شيئاً. وقالت أيضاً إنّ هذا اللقاء أعطاها في الوقت نفسه قوّة تستطيع أن تستمرّ بها إلى الأبد.

فهل هناك ما هو أجمل؟

لم أكن أحلم بذلك، ولم يكن في البال أنّني سأعيش مشاعر بهذا الدفق والعمق والقوّة. أنا الرجل المعتدل في كلّ شيء.

في خلال خمس عشرة دقيقة نقلتني هامة إلى الضفّة الأخرى، إلى الضفّة المقابلة المعاكسة لتلك التي أمضيتُ فيها كلّ حياتي حتّى تلك اللحظة، فأنا أصلاً من النوع الآخر، الذي لا يحلم بالحبّ ولا يسعى إليه، كوالدي الذي أشبهه إلى حدّ بعيد. كان والدي يقول لي: أقبح صفة في الإنسان حاجته إلى المرأة، وبخاصّة حاجته الجنسيّة، لأنها تجعله بلا كرامة!

لقد نقلتني هامة في خمس عشرة دقيقة إلى الضفّة الأخرى، ونسفتْ كلّ الجسور ما بين الضفّتين، بحيث باتت العودة مستحيلة.

كان والدي يقول لي: خلِّ مسافةً بينك وبين زوجتك إذا تزوّجت.

نادِها بضمير الجمع المخاطَب إن استطعت، كما تنادي شخصاً غريباً لا تعرفه:

ـ حضرتكم!» قل لها.

واللافت أنّ أسرتنا كانت تتمتّع بالمحاسن التي تحلم بأن تتمتّع بها كلُّ أسرة من فئتنا الاجتماعية المتوسّطة. كنّا مستقلّين في بيتنا وفي معيشتنا. فلا حماة ولا أقارب إلاّ من يزورنا من وقت لآخر، أو في المناسبات المعروفة. وكان بيتنا ملكاً لنا، كما المبنى كلّه المؤلّف من ثلاث طبقات وكلّ طبقة من شقّتين. وكنّا نتمتّع بكلّ ما تقدّمه المدنية من كهرباء وماء وبرّاد وراديو وهاتف، وتدفئة وماء ساخن ليل نهار.

لكنّ أسرتنا لم تكن محكومة بالسلطة الأبويّة، ولم يكن والدي وحده من يملك زمام الأمور في البيت. كانت والدتي تشاركه في القرار، بل كانت ماليّة الأسرة في يدها أكثر مما في يده، فتصرف كلّ يوم ما ترى مناسباً. وكانت هي التي تحسم النقاش في ما يتعلّق بالشقق التي كنّا نملكها ونعتاش من تأجيرها.

وكانت هي التي تسمح بغياب الأولاد عن البيت، في المساء أو في أيّام العطل.

أنا لم أعش لأرى انهيار سلطة الأب، لأنّني ولدت فيها. ولم تعترضني مشكلة السفرر لأنّ والدتي وأخواتي كنّ دائماً سافرات.

بل كان والدي يخزّن المشروبات الروحية في البيت، بحيث إنّ بيتنا لم يخلُ يوماً من العرق أو البيرة أو النبيذ أو الويسكي، لكنّه لم

يكن سكّيراً ولا أذكر أنّه تعدّى حدّاً من حدود اللياقة مرّةً تحت تأثير ما شرب. وكانت والدتي تشرب أيضاً في المناسبات.

كان والدي يخبرنا كلّما جلس ليشرب كأساً، وحده أو بمشاركة ضيف، كيف ضربه والده حتّى أُغمي عليه، عندما فاجأه بشرب البيرة مع عدد من أصدقائه في أحد المقاهي، ثمّ تركه مغميّاً عليه أمام باب المقهى ومضى في سبيله.

وكان والدي مولعاً بكتب الأدب القديمة وبكتب التاريخ.

وحين بلغتُ سنّ الزواج، راح يصارحني بآرائه في الحياة عامّةً، وفي المرأة والزواج بخاصّة، وبدون حرج.

جامِع زوجتك للولد فقط! كان يقول لي ـ على طريقة العذريّين العرب القدماء، الذين كانوا يعتبرون أنّ «الولوج للولد» وحسب.

جامِع زوجتك بعدد الأولاد الذي تتمنّاه فقط، ولا تضاجعها مرّة واحدة أكثر من ذلك. كُنْ في هذا المجال كالحيوانات التي لا تضاجع إلاّ للنسل. وإذا غلبتك لذّتك فذلّ مالك ولا تذلّ حالك! إنهنّ ـ أي المومسات ـ أرحم النساء وأكثرهنّ إنسانيّةً.

لم يكن والدي كالآخرين من معشره وجيله، بل كان متميّزاً جدّاً، إلى حدّ أنّ البعض كان يصفه بغرابة الأطوار. فالحذر من الزواج، واللجوء إلى المومسات ليس من النصائح التي ينصح بها والدٌ ولدَه في تلك الأوساط المحافظة، وبخاصّة في تلك الأيّام.

أمّا أنا، فكنتُ مسحوراً به وبأفكاره، وبأسلوبه في العيش وبطريقته في الكلام.

لكنّ الغريب بالنسبة إليّ، هو أنّ والدي الذي كان يقول هذا الكلام عن الجنس والمرأة والرجل، كان ينام مع والدتي، أكثر بكثير من عدد الأولاد الخمسة الذين استولدها إيّاهم. أقول ذلك لأنني رأيتهما يقومان بذلك مرّات كثيرة، أكثر بكثير من عددنا نحن أولاده. كانا كلّما اختلفا وتصايحا، ينتهيان بالعناق وقوفاً في المطبخ أو في الحمّام أو في غرفة نومهما، أو في المكان الذي يخلو لهما في تلك اللحظة.

لم أقع في حياتي كلّها، على أثر يشير إلى أنّ والدتي كانت تخون والدي. لا كلمة ولا هاتف ولا رسالة ولا نظرة ولا شيء. لكنّني كنت وما أزال أعتقد أنها كانت تخونه، وذلك رغم الأولاد الخمسة الذين أنجبها إيّاهم. ولا برهان لديّ ولا حجّة ولا مستمسك ولا وثيقة ولا شيء. إنّه اعتقاد يشبه الإيمان النابع من الداخل والذي لا يُغلَب. أو ربّما كانت الطريقة التي كانا يتعانقان بها وقوفاً في أغلب الأوقات بعد كلّ شجار هي ما أوحت إليّ بذلك. كأنّ والدي كان يريد أن يؤلمها حين يلجها لا أن يلذّها، وكأنّه كان يلتذ بإيلامها. لم يكن يأخذها بحنان، وكانت هي تدافع عن نفسها بطريقة استقبالها له. كانت تستوعب اندفاعه نحوها ولا تصدّه. كان ما يجري بينهما أشبه بمعركة تنتهي بالعناق ثم بوقوعهما على الأرض بلا ضجّة.

كنتُ أوّل الأمر حين أراهما على هذه الحال، أخجل من نفسي، وأختفي في مكان منعزل من البيت بعيد، حتّى لا يشعرا بوجودي، بل حتّى لا أشعر أنا نفسي بوجودي، ثمّ تحوّلتْ رؤيتي لهما على هذه الحال إلى شيء «عاديّ» لكنّه مثير للفضول.

ثم صارت ذكرى منظرهما يتضاجعان ترافقني عندما أحلم بالجنس وأعمد إلى الاستمناء.

كنت أستعيد في خلوتي ما كنت أراه منهما، مُخفياً وجهيهما وشاعراً بالذنب العظيم!

استولد والدي أمّي خمسة أولاد لا شكّ أنّهم (أنّنا) جميعاً منه، ولولا أنّ الولادة صعُبت عليها فيما بعد، ولولا أنْ ضاقت علينا شقّتنا لكان استولدها المزيد. سبعة أنفس في غرفتَيْ نوم. صبيّان وثلاث بنات والوالدان.

لكنّني لا أظنّ أن والدي توقّف عن إخصاب والدتي تحسّساً منه بصعوبة ولادتها. كانت والدتي تصرّح لنا دائماً بأنّها كانت تحلم بأن تتابع دراستها، لكنّ والدنا كان يفاجئها دائماً فتحبل. بل كانت تقول إنّه كان يغدر بها. وكانت تصرّح بأنّها حبلت بي ـ أنا مولودها الثاني ـ غصباً، وكانت تصفني أحياناً وهي في حالة الغضب بـ «ابن الغصب». وقد حاولتْ التخلّص منّي أثناء حبلها بي، لكنّ الإجهاض في تلك الأيّام كان مستحيلاً، وقد حاولتْ بطرقها الخاصّة فلم تفلح.

لذلك فإنّها عندما اضطرت لإجراء عملية لإزالة كيس على المبيض، وذلك بعد ولادتها الخامسة، استغلّت المناسبة وطلبت من الجرّاح أن يجري لها في الوقت نفسه عملية ربط الأنابيب التي تمنعها من الحبل نهائيّاً، وذلك بدون معرفة من والدي، وقد اطّلعتُ على هذا السرّ من أختي الكبرى غوى، التي كانت المفضّلة لدى والدتي بين جميع أولادها.

وكانت والدتي تشكو دائماً من أنّها زُوّجت صغيرةً في الرابعة عشرة من عمرها، وقد أُخرجت من المدرسة لهذا السبب. وكان والدي يكبرها بحوالي سبع عشرة سنة.

لا أريد أن أفسّر نصائح والدي لي، في ما يتعلّق بالنساء، بما كان يجري في شقّتنا، لكنّني أعترف (هل هو اعتراف أم بوح؟) بأنّ رغباتي في الساعات الأولى للمراهقة، تفتّحت في هذا الجوّ البيتي.

ولم أقلْ بعدُ شيئاً عن أختي غوى، إذ ليس من السهل التصريح بهذه الأسرار.

كانت غوى هي البكر وأنا تاليها، وكانت تصغر أمّها بخمس عشرة سنة وتكبرني بسنة واحدة، وكنت أُطلعها على ما كان يجري معي، وأُريها رجولتي التي كنتُ أكتشفها شيئاً فشيئاً، وأكتشف حجمها وتفاصيل كيانها، وعندما استحلبتُ نفسي المرّة الأولى، وكنت في نحو الثانية عشرة، ودُهشتُ من هذا الماء الذي خرج منّي، أخبرتها بالأمر فاهتمّت كثيراً، وطلبت منّي أن أُريها كيف يحدث ذلك، فوعدتُها بما طلبتْ، لكنّ البرّ بالوعد لم يكن سهلاً، لأنّ البيت لم يكن يخلو من أحد من الأسرة، ولم تكن تخلو منه غرفة أو زاوية، وكانت هي بالطبع لا تستطيع أن تجد حجّة للدخول معي إلى الحمّام. وانتظرنا أيّاماً حتّى استطاعت أخيراً أن تجد الحيلة. كانت الشقّة المقابلة لنا خالية، لأنّ أصحابها كانوا مسيحيّين، وقد هجروها منذ حرب ١٩٥٨ يوم انقسم اللبنانيّون إلى غالبيّة مسلمة تؤيّد الرئيس المصري جمال عبد الناصر والاتّحاد السوفياتي، وغالبية مسيحيّة تؤيّد كميل شمعون رئيس الجمهوريّة آنذاك المتحالف مع

الولايات المتحدة وعدد من الدول العربيّة. وقد وقعت حرب بين الفئتين لم تدم سوى أشهر معدودة. وقد حدث إثر ذلك نزوح سكّاني وفرز طائفي، كما يحدث في كلّ حرب من هذا النوع. ولم يعد جيراننا إلى شقّتهم بعد انتهاء الأحداث ولم يبيعوها، وقد أودعوا والديّ مفتاحها، وكانت والدتي التي كانت تحبّهم كثيراً وترجو عودتهم، تتفقّدها مرّة كلّ شهر أو شهرين، وتفتح شبابيكها وتهوّيها وتنظّفها. فاقترحت غوى على والدتها أن تذهب برفقتي إلى الشقّة لتتفقّدها، نوافقت الوالدة لأنّها تذكّرت أنّ زماناً طويلاً مضى منذ أن تفقّدَتْها المرّة الأخيرة. لكنّها طلبت منّا ألاّ نتأخّر.

دخلنا إلى الحمّام وأغلقنا بابه علينا، وراحت أختي تلحّ عليّ بأن أسرع، ولمّا نفر مائي اقتربتْ منه وراحت تتحسّسه بيدها، كأنّها تتفحّص قطعة قماش. وفي هذه الأثناء سمعنا الوالدة تنادي من قرب، من داخل الشقّة، (لقد نسينا المفتاح في الباب!) فخرجت غوى فوراً من الحمّام وقالت للوالدة على سبيل الشكوى إنّني ألعب بماء المغسلة (يا لهذه البديهة ويا لهذا الذكاء!) فنادتني الوالدة وطلبت منّي أن أقفل حنفيّة المغسلة جيّداً وأن أخرج فوراً.

على كلّ، إنّ أختي غوى تزوّجت سريعاً بملء إرادتها، وعندها الآن ابنتان اثنتان وابن واحد، وزوجها الذي يعمل مهندساً في شركة بناء في الخليج ما يزال مغرماً بها كما كان منذ أن تعرّف إليها، لكنّها كما أظنّ لم تعد تحبّه ولم تعد تكتفي به. ذكر اسمها مرّةً أحدٌ في حضوري وغمز بعينه، علامةً قصد بها على ما فهمت، أنّها «تخون» زوجها. لم يكن يعرف أنّني أخوها، فتصرّفتُ كأنّني لم أنتبه إلى شيء. والحقيقة أنني لم أشعر بغيرة ولا بإهانة ولا بشيء، كأنه كان يتكلّم عن عدد. عن الفرق بين العدد ٤ والعدد ٥ مثلاً

بشكل مجرّد، في ذهن الإنسان. والغريب أنني صدّقته مع أنني أعرف أن الناس يقسون على بعضهم في إطلاق الأحكام، ولا يتورّعون عن نشر الأخبار بلا رادع. إنهم بلا رحمة. كأنّ الآخر الذي يتكلّمون عنه مولود من حَجَرَيْن. ولكنني صدّقت لأنّني في طبعي حين أبني على الشكّ أصل إلى استنتاجات صحيحة.

أم إنّني لم «أهضم» إلى اليوم زواجها المبكر؟

يا أصدقائي الذين تحبّونني لا تخجلوا منّي! فهذا شيء كان عليّ أن أقوله من زمان، وقد آن وقتُ قوله الآن. نعم الآن! وأعرف أنّه أمسِ وقع انفجار في أحد أجمل شوارع بيروت التجاريّة والسياحيّة، فقتل ودمّر وبتر أيدي وأرجلاً وفقأ عيوناً، وضاعف المخاوف من الآتي الأعظم! وقد سمعتُه من بيتي الذي اهتزّ، وقد كنتُ قبل ساعة فقط مارّاً في المكان، فلو انفجرت هذه السيّارة المفخّخة أثناء مروري بمحاذاتها لتوزّعتْ نتفي كلُّ أنحاء بيروت، لأنّ لحم جسمي ليس معَدّاً لهذه الشظايا الفولاذيّة التي تنطلق نجاةً كالبرق، ولا حتّى عظامي معدّة لذلك، بل لا شيء فيّ.

وأعرف أنّ الحدود الجنوبيّة مع إسرائيل بركان سينفجر بين يوم وآخر.

أعرف!

لكنّ ذلك لا يمنعني من القول بصراحة لا متناهية إنّني أحذر من المرأة، وإنّني لذلك لم أتزوّج. ولذلك لم أطلّق وأتزوّج ثانيةً.

ولأنني لا أثق بالمرأة، أخذتُ بنصيحة والدي وعملتُ بها: أذهبُ عند «مومس» حين تلحّ عليّ الرغبة. و«المومس» التي أذهب عندها لا تكلّفني جهداً ولا مالاً كثيراً ولا استحياء، أتصل بها كما أتصل بصديقة، وأقول لها إنني راغب في رؤيتها، فتعينُ لي وقتاً لا يكون بصرامة الموعد، وأذهب عندها في الطابق الرابع. أصعد على الدرج، لا أنتظر المصعد خوفاً من أن ألتقي بأحد أعرفه وأنا أنتظر، لأنّ المصعد بطيء والانتظار قد يطول. أحيي عند الدخول. أجلس على الكنبة الكبيرة في الصالون في النور الخافت، فتأتي لي بكأس وأخرى لها، وتجلس قربي على الكنبة ذاتها كأننا صديقان. ولا نتحدّث إلاّ قليلاً. ثم تميل إليّ وتبادر إلى ما أحبّ. صارت تعرف ما أحبّ. وأحيانا تزورني «صديقة» مطلّقة منذ سنين طويلة، فندخل إلى غرفة نومي التي تعتم في فترة ما بعد الظهر، ولا نُشعل النور، ثم نقع على بعضنا بدون أن نتبادل كلمة واحدة، كأنّنا ظلاّن ممتلئان. و«مغامرات» أخرى نادرة جدّاً من هذا النوع، ثمّ يتبارك منّي صديقي حسن، بعد أن يفهم «سرّ سجدي» الذي مفاده بالنسبة إليه، أنّني لم أقعْ على امرأة لا تبلغ الأورغاسم إلاّ «من برّا»!

كان والدي يحبّ قراءة الكتب التراثيّة العربيّة. كانت مكتبته في شقتنا معبّأة بهذه الكتب. كان يقرأ لنا منها أحياناً، وكان يقرأ لوالدتي مقاطع وأخباراً في غيابنا لا يقرؤها لنا. سمعته مرّة يقول لأحد أصحابه، في الستينيات من القرن الماضي، فترة الثورة الجنسية في أميركا وأوروبّا، سمعته يقول له إن العرب عرفوا الفصل بين الجنس والعاطفة من زمان، وإنّ العذريين كانوا يعتقدون بأن الحبّ الحقيقي يكون باللمس والضمّ والتقبيل لا بالولوج. كان العذريّون ممّن لم يُودِ بهم عشقُهم إلى الجنون يتزوّجون من غير محبوباتهم، ويُنجبون منهنّ أولاداً، ويضاجعونهنّ بعدد الأولاد الذين ينجبونهم

منهنّ لا أكثر ـ على ما كان يزعم والدي ـ وكانوا يبقون في الوقت نفسه على حبّهم الخالد لمحبوباتهم اللواتي كنّ يتزوّجن من غيرهم، ويعشنَ مع أزواجهن حياة طبيعيّة. وفي هذا العصر الحديث بالذات، يزعم والدي أنّ الشاعر المصري أحمد رامي كان مغرماً بأمّ كلثوم، وكان يكتب لها كلمات لكثير من أغانيها، وكان في الوقت نفسه متزوّجاً من سيّدة محترمة أنجبها أولاداً. وأمّا الخلفاء في ذلك الزمان ومعهم الأرستقراطية العربية، وكلّ من استطاع، فقد ملكوا من النساء والغلمان ما شاء الله، فهل كان الواحد من هؤلاء يحبّ جميع من يملك؟ وكان الخلفاء والأرستقراطيّون العرب في الزمان القديم، يُبقون على زوجاتهم العربيات لشرف نسبهنّ، بينما كانت متعتهم الفعليّة مع الأخريات من الزوجات والجواري والغلمان!

كان والدي مختلفاً جدّاً عن زمنه.

أُكرّر أنني لا أريد أن أردّ نصائح والدي لي إلى ما كان يجري في شقّتنا، وأُضيف أنّني لا أُريد أن أفسّر موقفي من المرأة وحذَري منها وعدم إقدامي على الزواج، أو على الطلاق ثمّ الزواج، بما كان يحدث بيننا في العائلة، لكنّ الشيء بالشيء يذكر، وهذا كلّ ما في الأمر.

أمّا ما أردتُ قولَه فهو أنّني كنت حتّى لحظة لقائي بهامة لا أحلم بحبّ ولا أفكّر بزواج ولا أسعى إلى مساكنة (وقد بدأت المساكنة تصبح ممكنة بخجل شديد، في بعض أحياء بيروت، كالحيّ الذي أسكن فيه، في منطقة راس بيروت. وهذا ما يفسّر بحسب أحد المتبجّحين لحركة الانبعاث الديني، تكاثر المعابد فيه وتعاظم قوّة مكبّرات الصوت).

أقول إذن إنّ كلّ شيء تغيّر فيّ خلال الدقائق الخمس عشرة الأولى من لقائي بهامة.

خمس عشرة دقيقة فقط كانت كافيةً لكي تنقلني من ضفّة إلى أخرى. من ضفّة دمت فيها ستّين عاماً لم أتصوّر خلالها ألاّ أكون مشابهاً لذاتي في يوم من الأيّام، ولم أتصوّر خلالها أنّني سأتحوّل ذات يوم تحوّلاً جذريّاً إلى حدّ أنّني لا أعود أنا نفسي.

أكرّر أنّها حين دعتني إلى المقهى بعد المحاضرة، وافقتُ على دعوتها، وفي أعماق أعماقي كنت أوافق على دعوة من قبلها لإقامة علاقة وجوديّة معها تدوم إلى الأبد!

وكان أوّل شيء طلبتُه من هامة صورة لها مع ابنتها، فأعطتني إيّاها فوراً، ووضعتُها أمامي على مكتبي في البيت، وما زلت محتفظاً بها في مكانها لم أزلها حتّى اليوم.

لكنّ هامة تركتني لأنها وجدت الرجل المناسب. فمن هو هذا الرجل المناسب؟ وبماذا يتميّز عنّي ولماذا لست أنا هو؟

قالت لي في اتصالها الهاتفي إنّه من جيلها، ثمّ أضافت بدون أن أستزيدها أنه «من عمرها» وتردّدتْ قليلاً قبل أن تضيف: «تقريباً». ورجتني في هذه المكالمة أيضاً أن أدعها تعيش حياتها معه بسلام:

- Please!

قالت لي بالإنكليزيّة «بليز!»، ولم تقل بالعربية: «رجاء!»، كما اعتادت أن تقول لي طوال مدّة علاقتنا. وجدير بالذكر هنا، أنّ أحد

أسباب ارتباطها بي، كما كانت تزعم، أنّها مضطرة إلى أن تتكلّم معي دائماً بالعربيّة، لأنني لا أتكلّم الإنكليزية، وهذا ما كانت تحبّه ـ أي الكلام بالعربيّة ـ وما كانت تشتاق إليه، لأنها في بداية الحرب عام ١٩٧٥ يوم هجرت لبنان مع عائلتها كانت في أوّل مراهقتها، وقد أكملت دراستها في مدارس إنكليزيّة وأهملت العربيّة تماماً.

دبّ فيها الحنين إلى لبنان وهي في نيويورك، فسعت للعودة إليه، وأفاقت فيها الرغبة في اللغة العربية، وأرادت إتقانها، فتسجّلت في قسم اللغة العربيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وسعت للحصول على إجازة منها. وقد بادرت إلى تأليف لجنة ثقافية تهتم بإقامة علاقات مع المجتمع البيروتي المحيط، في رغبة منها لتحوّل الجامعة إلى جزء من النسيج الثقافي البيروتي، حتّى لا تبقى كما هي أقرب إلى جزيرة منعزلة عن محيطها.

وقرّرت هذه اللجنة دعوة كتّاب لبنانيين واللقاء بهم ومناقشة المواضيع الكتابيّة الراهنة.

في لقائنا الأوّل في مقهى الـ«سيتي كافيه»، أخبرتني أنّها تركت ابنتها مرغمة في نيويورك، لأنّ زوجها السابق والدَ ابنتها، منعها من أن تصطحب البنت معها إلى بيروت بحجّة انعدام الأمن فيها، وقد ربح الدعوى عليها وحرمها القاضي من هذا الحقّ. لذلك فهي دائمة العودة إلى نيويورك حيث تمتلك شقة صغيرة. وهي دائمة الشوق إلى ابنتها التي كانت تتوزّعها مع زوجها هناك في نيويورك بعد طلاقها. وكان زوجها يرفض أن تتكلّم العربية مع ابنتهما. كان يشعر بأنها، حين تكلّمها بالعربيّة، تقيم مسافة بينه وبينها تبعدها

عنه. «مسافة من غموض»! كان يقول. وكانت هذه المسافة تتسع، وهذا الغموض يزداد، كلما اشتدّ الخلاف بينهما. لذلك صار في المرحلة الأخيرة من حياتهما المشتركة يغضب كثيراً حين يسمعها تتوجّه بكلمة عربيّة إلى ابنتها. بل صفعها مرّة في لحظة غيظ! كان ذلك في نيويورك، قبل الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١. عندها خرجت هامة عن طورها لشدّة ما غضبت. لم يرفع يدَه عليها بشرٍّ من قبل، حتّى ولا والدها، فكيف يجرؤ هذا الإنكليزي الأشقر على فعل ما فعل؟

لم تفكّر لحظة في أن ترفع دعوى عليه كما تفعل نساء كثيرات في تلك البلدان حيث القضاء مأوى و«فشّة خلق»، بل فكّرتُ في أمور أبعد من ذلك بكثير، فكّرت في صراع الأمم والشعوب والحضارات، فكّرت في أنّها عوملت بهذه الطريقة لأنّها لبنانيّة وعربيّة، ولأنّ العرب لم يُركّعوا يوماً بريطانيا العظمى كما فعل ذات يوم نابليون بونابرت الفرنسي، تمنّت لو أنّها تستطيع أن تمرّغ في التراب عنفوان بريطانيا العظمى، وقالت في نفسها: لا يحترمك إلاّ من يخافك. ولا يخافك إلاّ من قتلته يوماً حتّى يتعلّم. وقالت في نفسها كم أفهم الذين يفجّرون أنفسهم انتصاراً لكرامتهم!

ثم قامت ورمته بما تستطيع من موجودات البيت. أرادت أن تثأر لنفسها بنفسها.

ثمّ انتبهت إلى أنّ ابنتها كانت شاهدة على كلّ ما يجري، فتقدّمت منها وأخذتها بين ذراعيها وانفجرت بالبكاء.

ثمّ أضافت لي: الطلاق حرب فعليّة!

أزعجني كلامها عن بريطانيا بينما الخلاف هو مع زوجها، لكنّني لم أُبدِ انزعاجي، بل قلت لها:

ـ لم يحدث هذا الخلاف لحسن حظّكِ بعد ١١ أيلول، وإلاّ كان سهل عليه الانتقام منكِ أضعافاً.

فأجابت:

ـ كنتُ خطفتُ روحه!

لقد وجدتُ هامة إذن ضالّتها فيّ، فأنا لستُ عربيّاً وحسب بل كاتب بالعربيّة ومقيم في بيروت، قلب العالم العربيّ وساحة صراعاته، ولم يختلط لساني بالإنكليزيّة. وأهمّ من كلّ ذلك، على أهمية كلّ ذلك، قالت لي إنها أحبّت كثيراً ما قلتُه في المحاضرة، وإنها كانت خائفة قبل أن أبدأ بالكلام أن يخيب ظنّها بي، لأنها كانت قرأت كتابي الأخير وأحبّته كثيراً، وخافت ألاّ تكون شخصيّتي حلوة ككتابتي. يا إلهي!

ما أجمل الأيّام إذا أعطت! وما أكرمها!

وفجأةً بدأ قلبي يضرب في صدري، ولم أعد أستطيع السيطرة عليه.

أحسست فجأة بأنّ الأيّام تقدّم لي هديّة لم أكن أحلم بها. لقد وجدت فيّ هامة ما ينقصها لتكتمل.

لقائي مع الطلاّب في الجامعة بدأ في الثالثة من بعد الظهر وانتهى نحو الرابعة والنصف. كان ذلك في السابع من أيّار، أي في اليوم

التالي للسادس من أيّار، عيد الشهداء. لا أنسى ما جرى في ذلك النهار، لأنّه في ذلك النهار صدر لي مقال في جريدة «الحياة» المحدودة الانتشار عن «الشهادة»، أقصد الموت في سبيل قضيّة، قلت فيه أشياء لم يستسغْها أغلب من قرأها، قلت فيه إن بلادنا يكفيها ما سقط فيها من شهداء في الحروب ما بيننا، وفي حروبنا مع الآخرين، وفي حروب الآخرين على أرضنا، وقلت إنّ مزيداً من الشهداء ما زال يسقط، بحيث إننا بتنا نشهد تضخّماً في أعدادهم، ممّا يقلّل من قيمتهم ويعطي نتائج عكسيّة. وقلتُ شيئاً أخطر أهميّةً من ذلك، قلتُ إنّ الشعراء والكتّاب العرب الذين تغنّوا بالشهادة، وأقصد منهم عدداً كبيراً من شعراء وكتّاب عصر النهضة وما بعدها، وشعراء النهضة الشعرية الكبرى في الخمسينيات والستينيات، وكثيراً من الشعراء والكتّاب اليوم... إنّ هؤلاء جميعاً الذين حلموا بالشهداء يرؤون تراب الوطن بدمائهم قد تحققت أحلامهم (وزيادة!) والذين رأوا في الأرض امرأة تخصّب بالدماء، لتُزهر شهداء آخرين، تحققت أحلامهم (وزيادة!)، وخلص مقالي إلى استنتاج مفاده أننا اليوم نعيش بعض ما حلم به شعراؤنا وكتّابنا، هؤلاء الذين نشروا فينا، في الثقافة العربية، ثقافة صناعة الموت لا ثقافة بناء الحياة. مجّدوا الموت والفداء ـ وكان هذا لا شكّ أمراً ضروريّاً وما يزال ـ ولكنهم لم يمجّدوا في الوقت نفسه الحياة والذكاء والحكمة والعمل بصبر وبنفَس طويل من أجل الوصول إلى الهدف المنشود، ولم يلتفتوا إلى بناء الدولة والمؤسّسات، ولم يدعوا إلى احترام الآخر وما إلى ذلك.

الموت أسرع الحلول وأهونها في أكثر الأوقات!

وقلتُ في مقالي أيضاً إنّ كثيراً من شعراء الخمسينيات وما بعد، ربّما

ساهموا هم أيضاً، في قيام الأنظمة العربيّة المتسلّطة، وذلك بتمجيدهم البطل المخلّص المُلهَم، الذي يأخذ وحده بيد الأمّة ويهزّ كيانها، ليُنهِضَها من نومها العميق (من سباتها العميق ـ تقول العبارة الحقّة!).

لخّصت لها مقالي وقلت لها أتمنّى أن تقرئيه وأن تعطيني رأيك فيه. كانت تسمع بانتباه شديد، وبشعور مزيج من الدهشة والغرابة، شعور من يطلّ على عالم جديد يثير التساؤل البحت، التساؤل الذي لا يستدعي جواباً ولا التزاماً. كانت غائبة تماماً عن هذه المواضيع، ودامت كذلك.

بدأ لقاؤنا ـ هامة وأنا ـ قُبيل الساعة الخامسة إلاّ الربع من بعد ظهر السابع من أيّار ولم ينتهِ بعدُ لا عند ساعة ولا عند حدّ، فبعد أن شربنا قهوةً جاء وقت العشاء، فتعشّينا، ثمّ بقينا نتحدّث حتى العاشرة ليلاً، هي تخبرني عن أحوالها بتلقائية لافتة، وأنا أخبرها عن الأهمّية القصوى لتجربتي في الكتابة، وعن فرادتها وقيمتها، وإن لم تُترجَم هذه القيمة نجاحاً على مستوى المبيع. كنت أتكلّم بمتعة لا توصف، وبحماسة غير معهودة، لأنّني نادراً ما التقيت أحداً تمتّع إلى هذا الحدّ وهو يسمعني أتحدّث عن تجربتي الإبداعيّة، وعن آرائي في الوجود، وفي مجريات الأحداث.

هذه الهديّة: أن تُنصِت إليّ سيّدة من وزن هامة بهذا الانتباه وهذا الاهتمام، وأنا أتكلّم عن نفسي ككاتب.

ثم أصبحنا في بيتي وكانت الساعة بلغت العاشرة ليلاً.

هي لا تشرب إلاّ نادراً وأنا أحيا بكأس من الويسكي، واحدة فقط،

أشربها آخر المساء كلّ يوم، بديلاً عن حبّة منوّمة، لأنّني في أغلب الأوقات أأرق ويخونني النوم، (وهذا ما يُطمئنني في الحقيقة بمعنى ما، لأنّ الأرق من خواصّ المبدعين.).

لكنّني لم أشرب كأسي في تلك الليلة.

لأنها نامت على صدري في تلك الليلة.

اقتربتُ منها وضمَمْتُها إليّ وقلت لها وكانت الساعة تعدّت منتصف الليل: نامي عندي!

فأجابت مبتسمة: في فراش واحد؟

قلت: أوّلاً في فراش واحد، ثم تختارين بين البقاء أو الانتقال إلى الغرفة الأخرى.

ثم أضفت ممازحاً أيضاً:

ـ أو ننام واقفينَ!

ثمّ نامت على صدري.

كنتُ سعيداً في تلك الليلة رغم أنّني لم أغفُ. ولم أشرب كأس الويسكي الذي يساعدني على الغفو، خوفاً من أن أشخر فأزعج نومها العميق على صدري بشخيري. كانت أذنها على صدري فوق قلبي كأنها تتمتّع بسماع دقّاته المنتظمة، فتشعر بأمان عميق، بأمان الانتماء بعد الغربة، بأمان الانتماء إلى الوطن، إلى الثقافة العربيّة العريقة والراسخة، إلى الجذور! يا إلهي كم أحببت نفسي وكم شعرت أنّني جدير وأنه يُعتدّ بي، وكم أحببتها، وكم كنتُ ممتنّاً لما أنا منه، لهذه العروبة الدافئة التي تظلّلنا والتي تغلّف سعادتنا. وقلت إنّ للغربة عن الوطن حسنات مهما تكن مؤلمة. ومن حسناتها أنّها

تساهم في خلق ظرف كهذا الذي أنا فيه. لا تكرهوا شيئاً لعلّه خير لكم!

كنتُ في تلك الليلة مأخوذاً بالمفاجأة التي كنت أعيشها بسعادة لا توصف، لذلك لم أنتبه إلى أبعاد ما جرى بيننا. وحتى حين انتبهتُ لم أوْلِ الأمر ما يستحقّ من الاهتمام، مع أنني كنت عند عتبة الستّين من العمر! على كلّ...

على كلّ، ماذا كان في إمكاني أن أعمل أكثر مما عملت؟ فقد سلكتُ معها حسب معرفتي، وكما أسلك في مثل هذه الظروف، لكن بمزيد من الانتباه والتروّي، ذلك لأنني كنتُ منتبهاً إلى أنّ ما بين يديّ كنز نادر... ثمّ إنّني ولجتُها وأطلتُ البقاء فيها ما استطعتُ، ومنعتُ نفسي من الإراقة ما استطعت، حتّى تتمكّنَ من بلوغ أورغاسمها قبلي، لكنّها تأخّرت كثيراً، وتأخّرتُ أكثر ممّا أنا معتاد عليه، وأكثر ممّا أستطيع تحمّلَه، فلم يعد في إمكاني السيطرة على نفسي، فأرَقت.

لكنّني أرَقتُ بمتعة لا توصف، وبمتعة لا تقدّر بمقادير. وبعدما ارتحتُ قليلاً انتبهتُ إلى أنّها لم تبلغ بعد، فقلت لها على سبيل الاعتذار إنّ إيقاعَينا مختلفان، وإننا لا شكّ بحاجة إلى بعض الوقت لننتظم في إيقاع واحد، فابتسمتْ موافقةً وشدّت على يدي، ثمّ أضفتُ أنّنا غداً عندما نفيق، نعوّض عمّا فاتنا هذه الليلة، فابتسمت موافقةً أيضاً.

واستيقظتُ في صباح اليوم التالي على رائحة القهوة يعبق بها البيت! أحببتُ هذه الرائحة حبّاً لا يوصف، فناديتُها. كان شعرها ما يزال

مبلّلاً. تحمّمتُ. قلتُ لها: وجدتِ البنّ بسهولة؟ قالت: لم أفتّش عنه، بل لبست ثيابي وخرجت واشتريت بُنّاً طازجاً مع بعض الأشياء الأخرى. قلت: أي أشياء؟ قالت بحياء: ثياباً داخلية! لأنني لا أستطيع أن أبقي عليّ ثيابي الداخلية ذاتها يومين متتاليين.

كان هذا الأمر مثيراً للفضول بالنسبة إليّ، لأنني لستُ معتاداً على عالم النساء، ولا على عالم العاشقات الصباحي.

لكنها لم تكتف بشراء البنّ والثياب الداخلية، بل اشترت أيضاً خبزاً طازجاً مقوّىً بأنواع الحبوب المفيدة وحليباً مبستراً وعسلاً ألمانياً، وصابوناً بعطر دقيق وصريح، وسجّادة للقدمين العاريتين بعد الحمّام ومشطاً، وأشياء أخرى لم أعد أذكرها.

ثمّ سألتها عن غيابها عن العمل هذا الصباح، فقالت إنّها اتصلت بالمكتب واعتذرت.

ـ أريد أن أبقى معك! قالت لي بوضوح!

هذا ما دوّنته في ذلك النهار:

«هذه السيدة تشبه النعمة! تشبه الخير، تشبه العطاء!

تشبه سحابةً ماطرةً في موسم جفاف، تشبه ديمةً سمحاء!»

ثمّ دعتني إلى شرب القهوة قبل أن تبرد، وكنتُ في هذه الأثناء قد حلقت ذقني، وغسلت أسناني، وتدوّشتُ، وتعطّرتُ، وأتممتُ استعدادي، حتّى أصبحت في كامل جهوزيّتي، فجذبتُها إليّ ورحت أقبّلها في كلّ مكان، ولم يكن همّي أن ألتذّ أنا، بل كان

همّي أن تلتذّ هي، وكنتُ مأخوذاً بأمر واحد فقط، وساعياً إلى تحقيق هدف واحد فقط، وهو أنني يجب أن أجعلها تبلغ الأورغاسم لأعوّض عن تسرّعي ليلة البارحة، بل لأعوّض عن رعونتي. فاستعرضتُ كلّ معرفتي وكلّ ذكائي وكلّ قدرتي على الاستنباط، واحتلتُ طويلاً على نفسي حتى لا أبلغ ولا أُريق، لأنني إذا ما أرقت فلن أستطيع الانتصاب من جديد، ففي سنّي يجب الانتباه، لم أعد أتمتّع بلياقة وصلابة فتى في الثامنة عشرة، ثمّ إنّ الفياغرا المساعدة على الانتصاب كانت ما زالت جديدة، وكنّا لم نعتدْ بعد على استعمالها وعلى حسن التعامل مع تأثيرها وفاعليّتها، وكنتُ أحذر منها حتّى لا أقع في ما يقع فيه بعض الأصدقاء الذين يروون لي تجاربهم، فصديقي إيصال مثلاً يروي لي أنّه تناول حبّة فياغرا كاملة، قبل دقائق فقط من لقائه سيّدةً غير زوجته، لكنّ مفعول الحبّة بدأ يأخذ مجراه بعد انتهاء اللقاء، وبعد افتراقهما وخروجهما من المكان الذي كانا مجتمعين فيه، في شقّة أحد الأصحاب، فاحتار إيصال حينذاك فيما يفعله بقضيبه المنتصب، الذي لا ينصاع لأمره ولا يخضع لسيطرته، فعاد إلى بيته وضاجع زوجته فوراً، فدهشت زوجتُه من هذا الزخم المستجدّ عند زوجها، وهي في العادة تحاول المستحيل لإفاقته، بدون نتيجة. لكنّ أثر الحبّة ظلّ فاعلاً عند إيصال رغم مواقعته زوجته، فما كان منه إلاّ أن خرج إلى غرفة التلفزيون، واستحلب نفسه بيده وهو يشاهد فيلم بورنو! ومنذ ذلك التاريخ ما زال إيصال ينبّهني كلما أتينا على ذكر هذا الموضوع في أحاديثنا، إلى ضرورة تقدير الوقت قبل تناول حبّة الفياغرا. لكنّه ما زال من المشجّعين على تناولها.

بقيتُ إذن مسيطراً على نفسي، ممتنعاً من البلوغ والإراقة وقتاً طويلاً، طويلاً جدّاً، وأنا فيها، في هامة، حتّى تعبتُ.

ودمت كذلك ما يقارب نصف الساعة، بل أكثر بالتأكيد، كنت أثناءها أجاهد بكلّ قواي لأبقى مستمرّاً في حراكي ذهاباً وإياباً دون إبطاء، وذلك حتّى تبلغ هي... إلى أن استنفدتُ كلّ طاقتي وتعبتُ، وأصابني ما يشبه الشلل، وفقدتُ إحساسي بشيئي. وأظنّ أنّها هي أيضاً تعبتْ، وربّما فقدت إحساسها بشيئها أيضاً. لكنّني لا أنا بلغتُ ولا هي بلغَتْ.

لكنّنا كنّا سعيدين.

ثمّ قمت إلى الحمّام لأبول فلم أشعر بشيء وأنا أبول. لم أعد أشعر بذكري، فقد خدر لكثرة ما رحت وجئتُ.

وبعد أن عدتُ إليها وكانت ممدّة على فراشي، مسترخيةً بحريّة واطمئنان، سألتها إن كانت «مبسوطة» فأجابت بنعم وضمّتني.

ثمّ قبّلتني.

ثمّ اشتبكنا من جديد في عناق اشتدّ سريعاً ودام، ولم يكن لي هدف أثناءه سوى الهدف الأوّل، هدفي الأساس، أي جعلها تبلغ. وقد أسرّت لي وأنا منصرف بكلّيّتي إلى تحقيق ما أصبو إليه، أنّني ما أزال من الناحية الجنسيّة فتيّاً، وسألتني عمّا إذا كان كثيرون في سنّي بهذه القوّة.

أجبتها باقتضاب وبخوف عميق من الفشل، وبدون أن أوقف إيقاعي فيها ذهاباً وإياباً:

ـ حسب!

لكنّني هذه المرّة أيضاً لم أستطِعْ أن أجعلها تبلغ. وعدت وكرّرت لها بعدما هدأتُ مجترّاً فشلي، أن المسألةَ مسألةُ وقت حتى ينسجم الإيقاعان ويتآلفا. وأكّدتُ لها أنّ هذه مشاكلُ البدايات التي لا يمكننا تحاشيها. وطمأنتُها.

لكنني ارتحت قليلاً حين باحت لي أخيراً، أنّها بطبعها لا تستطيع أن تبلغ بسهولة، وأنّ ذلك يتطلّب وقتاً، وأظنّ أنها أضافت إلى الوقت الصبر، فقالت: إنّ ذلك يتطلّب وقتاً وصبراً.

ـ هذا أمر طبيعي. أجبتُ. وشرحتُ لها كيف أنّ هناك ألف سببٍ يمنع المرأة من أن تبلغ لذّتها في لقائها الأوّل برجل. وقلت إنّ الرجل أكثر حيوانيّة بكثير من المرأة، وإنّ المرأة أكثر روحانيّة بكثير من الرجل، وإنها أكثر حياء، وبخاصة امرأة بلادنا، وذلك مهما تغرّبت وعاشت في الخارج. أذكر الآن حين أستعيد ذلك المشهد، أنّها هزّت برأسها موافقةً على ملاحظتي هذه، لكن بدون حماسة. بل ممالأة!

وكان كلامي لها كلامَ رجلٍ نبيلٍ ومتفهّم ومنفتح ومؤاس، لا يُعقّد ما هو بسيط، ولا يولي أهمّيةً إلى ما لا أهميّة له. تماماً كما هو العاقل الحكيم!

وشرحتُ لها كيف أنّ المرأة بحاجة إلى أن تأمن قبل أن تستسلم بإرادتها، لأنّ الرجل يتصرّف معها عادة كالبغل، ويعاملها كفريسة، وشرحتُ لها كيف أنّ هذا السلوك متجذّر في الرجل منذ آلاف السنين، وطمأنتها إلى أنّ الأمور ما بيننا لن تتأخّر حتّى تنتظم.

شرحتُ لها وطمأنتها.

(نعم! أنا الذي شرحتُ لها وأنا الذي طمأنتها! فهي الجنس الضعيف وأنا الرجل القويّ وشيخ القبيلة الحكيم المجرّب!)

هكذا إذن جرى لقاؤنا الأوّل.

ولم نتكلّم أثناء لقائنا الأوّل هذا عن مستقبل علاقتنا، ولا عن شيء له علاقة بهذا المستقبل.

وقبل أن تخرج من بيتي نحو الظهر، سألتني إن كان هناك من يراقب دخولَ النساء بمفردهنّ إلى المبنى وخروجَهنّ منه، فقلت لها: لا! اطمئنّي! ما زالت بيروت مدينة تتمتّع بشيء من الحريّة من هذه الناحية، وبخاصّة منطقة «راس بيروت». فعلّقتْ مبتسمةً: لم يبلغها الطوفان بعد! طوفان التزمّت!

كان سؤالها هذا الإشارةَ الوحيدة إلى أنّها ستعود. أقول الإشارة الوحيدة لأنها لم تطلب منّي رقم هاتفي، ولم نتواعد على لقاء جديد.

وأنا أيضاً لم أطلب منها رقمَ هاتفها، رغم أنني فكّرت في ذلك، لكنّني امتنعت قائلاً في نفسي إنّه من الأفضل أن تبادر هي إلى الاتصال.

هنا أريد أن أبوح بشيء آخر:

لقد ربّيت نفسي على أنّ المرأة يجب أن تبادر وأن تتقدّم في

اتجاهي، لا العكس، وعلى أنّ المرأة يجب أن تسعى إليّ لا العكس، وذلك حتّى تكون علاقتها بي ناتجة من صميم إرادتها، حتّى أرفع ذلك سيفاً في وجه أخطائها! وحتّى يكون عنوان علاقتي بها كالآتي:

بما أنّكِ أنتِ التي اخترتني فعليك إذن أن تطيعي!

ولا أقصد الطاعة هنا بمعناها التقليدي طبعاً، بل بمعنى الانسجام!

ربّيت نفسي على هذا الأمر، لذلك لم أطلب رقم هاتفها.

ثمّ إنّ هناك سبباً آخر لا شك، وهو أنّ ممارسة الرجل الجنس مع امرأة ما، تعطيه حقّاً عليها، وتجعله بمعنى ما سيّداً عليها وإن لم تكن زوجته. أنا لا أريد للأمور أن تكون كذلك، لكن هذا هو الواقع.

كان شعوري العميق أنّ ما بيننا هو علاقة دائمة، وأنّ بيتي صار منذ الآن بيتَها، لذلك ستعود. وهكذا كان فقد عادت.

عادت بعد أسبوع، كنت أثناءه أنتظر عودتها في كلّ لحظة، وكدت أبادر مرّةً إلى الاتصال بصديقاتها في الجامعة، للحصول على رقم هاتفها منهنّ، لكنّني تمهّلت. أردت أن تأخذ الوقت الكافي، قبل أنْ تنتظم في هذه العلاقة الجديدة والنهائيّة معي.

إنّها امرأة ناضجة تعرف ما تريد، وتعرف ما هي بحاجة إليه.

عادت بعد أسبوع ومعها «دِي في دي» عليه الفيلم الأميركي «نهاية العلاقة» (ذي أند أف ذي أفّير) للمخرجَين «ستيفن وولي» و«نيل

جوردن»، وتمثيل «رالف فينس» و«جوليان مور» و«ستيفن ريا»، وهو فيلم مأخوذ من رواية الكاتب الإنكليزي «غراهام غرين» بالعنوان نفسه. قلت لها إنّني سمعتُ بهذا الفيلم لكنني لم أشاهده، فأجابتني بأنّها تريد أن نشاهده معاً، رغم أنّها شاهدته من قبل.

كان الريموت في يدها عندما بدأ الفيلم، فهي التي شغّلته. قلت لها: نسيتِ الترجمة!

قالت: لا! لا! لم أنسَ الترجمة. أنا سأترجم لك كلّ شيء. يضيع عليك كثير من الأشياء وأنت تقرأ بالعربيّة الفصحى كلاماً مترجماً عن المحكيّة الأميركيّة، ويضيع عليك وأنت تقرأ الترجمة كلّ ما يجعل من السينما سينما، السيناريو والإخراج والتمثيل والتصوير والديكور والإنارة، وما إلى كلّ ذلك. ثمّ قالت لي بجدّ وحزم:

ـ حبيبو! يجب أن تتعلّم الإنكليزيّة!

(حبيبو هو الاسم الذي كانت تغنّجني به)

فاجأني قولها للوهلة الأولى لأنّ جهلي بالإنكليزيّة هو ممّا شدّها إلي، ثمّ انتبهت إلى أنّ هذه الدعوة لا تتناقض مع رغبتها في مخاطبتي بالعربيّة، فهذان أمران مختلفان.

أجبتها فوراً وبشكل آلي، وكأنني لم أفكّر سابقاً في الموضوع، أو كأنني لم أعانِ منه:

ـ في هذه السن؟

قالت:

ـ ولِمَ لا؟ إذا كانت طاقتك على التعلّم كطاقتك على الجنس، فإنّك تستطيع أن تجيدها في شهرين!

فنظرتُ إليها بعينين دامعتين من التأثّر، وقلت في نفسي:

Elle est d'une délicatesse cette jolie femme!

وأردتُ أنْ أقولَ لها، لكن من أعماق القلب، وبشكل آخر مختلف عمّا يقوله الرجال الآخرون للنساء الأُخريات، أردت أن أقول لها:

ـ «بحبّك!» (بالمحكيّة طبعاً.)

لكنّني صبرت على رغبتي هذه، فليس من السهل على ستّينيّ مثلي أن يبوح بهذه المشاعر، كما لو أنّه كان شابّاً. ثمّ إنّني لست معتاداً على ذلك. لكنّني كنتُ على ثقة بأنّ كلّ لحظة من الزمن المقبل، ستكون مناسبةً مؤاتيةً لأبوح لها بحبّي.

ـ «بحبّك!» سأقول لها من أعماق الأعماق! وستخرج هذه الكلمة عطِرة، وستكون من طبيعة أخرى نورانيّة. من طبيعة البرق وبقوّته لكن ليس بعنفه.

أخذتها بين ذراعي بعدما قالت لي ذلك، وضممتها ضمّاً أردت به أن نصير واحداً، ودمت على ذلك متمتّعاً بالإحساس بها، ناسياً الفيلم وناسياً ما كانت تترجمه لي، وناسياً كلّ شيء، ومتمنّياً أن تدوم هذه اللحظة فقط، وأن تكون هذه اللحظة مصبَّ الزمن لا نقطة فيه.

قلت لها إذا تابعنا مشاهدة الفيلم بهذه الطريقة، فسأصبح ألمع ناقد سينمائي في العالم! قالت:

ـ لا يمكن أن تكون ناقداً سينمائيّاً جديّاً، إلاّ إذا تعلّمتَ اللغة الإنكليزية، فكيف يمكن لأحد أن يضع يده على أسرار صناعة السينما وأن يصبح ناقداً سينمائيّاً، بدون أن يكون متقِناً اللغة الإنكليزية؟

عادت إلى الإنكليزيّة مرّةً ثانيةً، فالملاحظة الأولى لم تكن عابرةً إذن، لا شكّ أنّها تولي الأمر أهميّة خاصّة.

فأخبرتها عند ذاك أنني في السنة الماضية، وبعد أن احتلّ الأميركيون العراق، قرّرت أن أتابع الأخبار باللغة الإنكليزيّة وفي الصحافة الأميركيّة بالذات، حتّى أطّلع على ما يجري من وجهة نظر الأميركيين، وحتى أفهم بلغتهم ما يفعلونه هناك وما يريدون فعله، فهم صنّاع الأحداث اليوم، ليس في العراق وحسب بل في العالم كلّه. وبالإضافة إلى فهمي ما يقومون به في العراق بلسانهم وتشابيههم واستعاراتهم وكناياتهم ومحسّناتهم البديعيّة، قلت: أتقدّم في الوقت نفسه في معرفتي بالإنكليزيّة وأنتهي من هذا الأمر الذي طال ترددي حياله. لكنّ أسلوب الصحافة كان صعباً جدّاً عليّ، وأصعب منه عليّ الكلام بالإنكليزيّة الأميركيّة على العراق.

وأنا في الحقيقة مقتنع من زمان أن عليّ تعلُّم الإنكليزيّة، وذلك قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، وقبل إعلان الرئيس الأميركي بوش الأب ولادة النظام العالمي الجديد، وقبل انتشار الإنترنيت والتراجع الكبير للغة الفرنسيّة، وهي اللغة الأجنبية الوحيدة التي أعرفها.

وكنت دائماً أتحمّس وكانت حماستي دائماً تفتر.

فعندما طرد الرئيسُ المصري أنور السادات، عام ١٩٧٢، الخبراءَ السوفيات من مصر إرضاء لأميركا، وأغاظنا حتّى الموت نحن اليسارَ العربي حلفاءَ الاتحاد السوفياتي، قلت: يجب أن أتعلّم الإنكليزيّة! وعندما صرّح بأنّ تسعاً وتسعين في المئة من أوراق حلّ أزمة الشرق الأوسط، ما بين العرب وإسرائيل، هي في يد أميركا، قلت: يجب أن أتعلّم الإنكليزيّة! وعندما زار هو ذاتُه، رئيسُ أهمّ دولة عربيّة مدينةَ القدس المحتلّة، تلك الزيارة الشهيرة التي ما زلنا نعيش نتائجها، قلت: عليّ أن أتعلّم اللغة الإنكليزيّة!

وهكذا تسجّلتُ في المعهد الثقافي البريطاني عام ١٩٨٢، وبدأتُ الدراسة بجدّ، لكنّ تلك السنة كانت لسوء حظّي حافلةً بالأحداث، ففيها اجتاح الجيش الإسرائيليّ الجنوب اللبناني وقسماً من البقاع واحتلّ بيروت. وفيها انتخب بشير الجميّل رئيساً للجمهوريّة، ثم اغتيل في انفجار هائل وهو ما زال منتخباً لم يتسلّم مهامه بعد، وقتل معه حوالي مئة شخص، وحدثت إثر هذا الاغتيال مجزرة صبرا وشاتيلا، وبعدها جاءت الجيوش الغربية (الأميركية والفرنسية والإيطالية) تحت اسم القوات المتعدّدة الجنسيات، وحجّتها حماية المدنيين. وقد أُقفل المعهد الثقافي البريطاني وقت ذاك، واضطررتُ إلى أن أهجر بيروت إلى أن انسحب الجيش الإسرائيليّ منها، وأهملتُ بعد ذلك تعلم الإنكليزيّة للأسف! بل للأسف الشديد! لأنّه كلّما تقادم الوقت تضاءلت القدرة على التعلّم. ففي ذلك الوقت كنت في الثلاثينيّات من عمري، وكان الأمر ممكناً، بل ممكن جداً.

لكنّ الظروف لم تسمح، وتكاسلتُ.

كنتُ أشعر في ذلك الوقت، وبيروت الملتهبة تشبه جهنّم المعدّة للكافرين، أنّ كلّ شيء باطل وبلا معنى. ولم يكن مزاجي يسمح لي بالانصراف إلى هذا، بل كنت منصرفاً بكلّيتي إلى متابعة شؤون بلدي الذي يحترق، والذي تحتلّه إسرائيل، والذي يتقاتل فيه اللبنانيون والفلسطينيّون والفلسطينيّون والسوريون والمسيحيون والمسلمون والشيعة والسنّة، وكلّ فئة مع الأخرى، وكلّ طرف مع نفسه. كان من الصعب جدّاً عليّ أن أقوم بشيء آخر غير متابعة الأحداث بحميّة وحماسة، على علمي بأنّني عاجز عن التأثير فيها، في هذا الاتجاه أو ذاك. لكنّ مجرّد المتابعة كانت ترضيني إلى حدّ ما، لأنّها كانت تشعرني بأنّني ملتزم قضايا بلدي، ولست لاهياً عنها وعابثاً لا أهتمّ بشيء. بل كانت المتابعة تعطيني قيمةً: «كاتب يعيش أحداث بلاده». «كاتب رفض أن يهاجر رغم العروض التي قدّمت له». «رغم الإغراءات التي تعرّض لها». هذا مناسب لي ككاتب. هذا يزيد من حظوظي في أن أصبح رمزاً من رموز الوطن المقاوم. طبعاً لم أكن حاسباً إلى هذا الحدّ، لكنّني كنت أؤمن بأنّه على المثقّف وبخاصة الكاتب، أن يُعطي المثل في حبّ الوطن والالتحام بقضاياه، وبقضايا شعبه، بل أن يكون هو المثل مجسّداً. رغم أنّني، والحقّ يُقال، لم أتعرّض لإغراءات فعليّة، ولذلك لم أعمل في الخارج كما عمل كثير من المثقّفين غيري، وبخاصّة الكتّاب منهم.

المهمّ بالنسبة إليّ الآن، أنني توقّفت عن تعلّم الإنكليزية رغم الحافز الذي شكّلته زيارة السادات إلى القدس، وكنت أصبحت على قدر كبير من المعرفة بها. ثمّ إنّ مستوى معرفتي لم يبقَ مستقراً على حاله للأسف، بل راح يتدهور، ورحتُ أنسى ما تعلّمته شيئاً فشيئاً، حتّى عدتُ إلى نقطة البداية أو كدتُ.

(لماذا لم تكن فرنسا في التاريخ محلّ إنكلترا؟)

لكنّ همّ الإنكليزيّة مع ذلك، لم يغب عن بالي، طوال تلك السنين التي تلت. أذكر جيّداً على سبيل المثال، أنّه عندما وضع الرئيس الأميركي بيل كلنتون، أواخر التسعينيّات من القرن الماضي، السيجار في فرج الشّابة المتدرّبة في مكتبه مونيكا لوينسكي، ثمّ مجّه بلذّة فائقة، وأذيع الخبر بتفاصيله في كلّ وسائل الإعلام في العالم أجمع، وعلّق صديقي الشاعر حسن الخائي على ذلك بقوله: إنّ العالم انتهى، وإننا قد شهدنا نهايته! قلت بشكل حاسم لا مردّ له: عليّ أن أتعلم اللغة الإنكليزيّة!

وعندما اكتمل اقتناعي، بأنّ العالم سينتهي فعلاً بالإنكليزيّة، قلت مرّةً أخرى أيضاً وأيضاً: عليّ أن أتعلّم الإنكليزيّة!

واليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، صارت معرفة الإنكليزيّة ضرورة لا تقبل النقاش، لأنّها صارت مسألة عدالة، فمن لا يعرفها مستبعد، وتضيق طريقه إلى مصادر المعرفة يوماً عن يوم، في أيّ موضوع كان، ويتضاءل أمله في أن يُصبح وزير خارجيّة بلاده، وينعدم أمله في أن يصبح موظّفاً في مؤسّسة دوليّة.

لكنّ الرغبة إن لم تشبعها تتقادم وتفتر، وحين تصبح أنت على عتبة الستين تميل تلقائيّاً إلى الكسل والاستقالة.

لكنّ هامة أيقظتني من سباتي، وأوقدت فيّ الرغبة من جديد، حين هزّتني قائلةً:

ـ حبيبو! يجب أن تتعلّم الإنكليزيّة!

وكيف للرغبة ألاّ تعود وتشتعل وقد تطوّعتْ هي بنفسها لمساعدتي! كيف يمكنني أن أرفض هذا العرض؟ فدبّت فيّ الحماسة من جديد، وذهبتُ في اليوم التالي إلى المكتبة واشتريت كتباً لتعليم الإنكليزيّة، راحت تدرّسني فيها من وقت لآخر أثناء فراغها.

وإذا كانت الدقائق الخمس عشرة من لقائنا الأولى نقلتني إلى الضفة الأخرى، فإنّ الأسابيع الأولى من علاقتنا رسّخت قدمي في هذه الضفة، وجعلتني أقطع نهائيّاً مع عالم دمت فيه مدّة ستّين سنةً.

لو أخبرني أحد بقصّة مماثلة لما صدّقته!

قلتُ إنّها حين دعتني إلى المقهى بعد المحاضرة، وافقتُ على دعوتها، وفي أعماق أعماقي كنت أوافق على دعوة لإقامة علاقة حب أبديّة، وها هي الأسابيع الأولى تُخرج هذه العلاقة إلى الوجود، وتحقّقها وتجسّدها. وها إنّني في علاقة أبديّة مقدّسة!

وصرت أردّد في نفسي بوضوح ما بعده وضوح، أنّني على استعداد لأكون عبداً لها، لأنّ عبوديّتي لها حرّية لي. عبوديتي لها تطلق مشاعري الجميلة، ورغباتي الجميلة، وتحقّق أحلامي الجميلة، وتمدّني بالقوّة على الإبداع، فأين العيب في هذا؟

هذه هي المرأة الملهِمة إذن! هذه هي المرأة التي تصنع العظماء! («إجت وألله جابها» نقول في محكيّتنا.) لقد فزت بهذه الأعطية، فما عليّ سوى شكر العناية صبح مساء.

لكنّ هامة تركتني هناك فجأةً وحيداً، وعاجزاً عن العودة الى الضفّة التي نصحني بها والدي، والتي أمضيتُ فيها ستّين عاماً.

لذلك لزمني وقت طويل، بضعة أسابيع، بعدما هجرتني، حتّى بدأتُ أعود إلى نفسي شيئاً فشيئاً، وحتى بدأ غضبي يتحوّل إلى حزن متغلغل في أنحاء النفس والجسد.

لأنني تصدّعتُ بعدما أبلغتني قرارها الذي لا رجوع عنه، مهما أبديت التماسك.

نعم تصدّعتُ!

وأحسستُ أنّ بعضي لم يعد مشدوداً إلى بعضي، وأنّ أجزائي لم تعد متماسكةً في كتلة واحدة.

لم أفهم، لم أستوعب.

حسبتها محاولة اغتيال.

إذ لا يمكن التعامل بهذه الخفّة مع رجل مسنّ. إنّها محاولة اغتيال ولا شيء آخر.

إنّها محاولة تصفية بالمعنى الحرفيّ للكلمة.

وهكذا جاءني أن أقيم دعوى عليها، وكان هذا في الحقيقة من أوائل ما فكّرت فيه. وفكّرت فعلاً في تكليف محام، وشرعت لذلك في تجميع الوثائق، وتحديد الأسباب الموجبة للقضية.

أمّا الوثائق فهي رسائلها التي تعلن فيها عن حبّها لي، والتي تعلن فيها عن سعادتها معي، والتي تعبّر فيها عن ثقتها بموهبتي ككاتب، وعن إعجابها بأسلوبي وبطريقتي في معالجة المواضيع (مع أنّني كنتُ دائماً أقول لها إنّني لا أعالج مواضيع)، وهناك رسائل تعبّر فيها عن رغبتها الواضحة في إقامة علاقة دائمة معي، وفي أن تُقيم معي في ظلّ سقف بيت واحد، بل أكثر من ذلك، وهذا وحده ما يستطيع القاضي بناء حكم عليه، تقول في ردّ على رسالة لي أحذّرها فيها

من فارق العمر بيننا (عشرون عاماً!)، تقول بالحرف الواحد:

«أحلم بولد منك تُورِثُه ذكاء عينيك! حبّلْني!»

وقد كتبتْها بالإنكليزيّة وهذا نصّها:

I dream of a child by you, who inherits your piercing eyes. Impregnante me!

يا سيّدي القاضي: هذا الفعل بصيغة الأمر (ـ حبّلني!) هو أجمل ما يمكن أن يسمعه رجل من امرأة يحبّها وتحبّه، في جميع اللغات! إنّه الفعل الذي لا يمكن إلاّ أن يصيب من الرجل عصبَ قلبه وعضلته النابضة. هذا الفعل ليس كلمة، بل قذيفة صاروخيّة تحمل أطناناً من المواد الشديدة الانفجار، تحوّل ما تصيبه إلى طحين وغبار، ويستسلم بعدها أشرس الأعداء.

فيا سيّدي القاضي،

قبل أن تقطع علاقتها بي بأسابيع فقط لا أكثر، كتبتْ لي هذه الرسالة التي تبوح فيها بحبّ يدكّ الحصون العاصية، ويَهُدّ الجبال الراسخة.

هذه رسالة تدجّن الأعاصير، لا تلك التي نشهدها اليوم نتيجة الانحباس الحراري وذوبان الجليد القطبي، بل تلك المنفلتة من جاهليّة الكون الأولى. وهذه رسالة تُنهض البحار، وترفع الأمواج العاتية. فكيف تتصوّر يا سيّدي القاضي أن يكون وقعُها عليّ، أنا الستّيني الذي بدأ ينحدر به العمر، والذي فقد الحلم ولم يعد يملك سوى رجاء واحد هو الانسحاب من هذه الحياة بهدوء وكرامة،

وبأقلّ ما يمكن من الصدمات والآلام؟

بعد هذه الرسالة الرائعة والحاسمة، انوعدتُ نفسي بالجنّة في هذه الدنيا المنبسطة، وفوق قشرة الأرض على هذا الكوكب السيّار، وبدأتُ أستعدّ نفسيّاً وجسديّاً لربط مصيري بمصيرها بولد من لقائنا، وبدأتُ أحسب كم سيكون الفارق بيني وبين ولدي، إنْ ولد بعد تسعة أشهر من الآن، وكم سيكون عمري عندما يبلغ سنّ المراهقة، ثمّ سنّ الرشد، وعندما يدخل المدرسة ثم الجامعة، ورحت أتساءل في كلّ لحظة من النهار ومن الليل ما إذا كنت سأبقى حيّاً إلى ذلك الوقت؟ وكم تساءلتُ إن كان يحقّ لي من الناحية الأخلاقيّة أن أخاطر بأن أنجب ولداً، ثمّ أموت تاركاً إيّاه بلا أب؟ كم أقلقتني تلك المسألة!

وكانت تكتب إليّ، يا سيّدي القاضي، إمّا عن طريق الهاتف النقّال، أو بالبريد الإلكتروني، أو على ورق جميل تسلّمني إيّاه باليد، وكانت تكتب إليّ بواسطة البريد العادي، وتكتب بالفاكس من مكتبها أو من بيتها إلى بيتي. وكلّ رسائلها محفوظة وموثّقة بترتيب حسب تواريخها، يقابلها دائماً ردودي التي كتبتها وأرسلتها أيضاً بالطرق ذاتها.

جمعتُ كلّ مراسلاتنا في ما يشبه الكتاب: رسالة مقابل رسالة، وردّ مقابل ردّ، وظهّرتها مطبوعة على ورق من النوع الجيّد ورتّبتها حسب التواريخ، بحيث إن القارئ يستطيع أن يطّلع على كلّ قصتنا في ساعات قليلة.

ـ هذه وثيقة يمكن أن تبنى عليها الدعوى! قلت لصديقي المحامي الذي سخر منّي أوّلاً وقال:

ـ إنْ قدّمنا دعوى في هذا الأمر فسنصبح أضحوكةً في أعين الناس جميعاً، وسينقطع رزقي فلا يعود أحد يكلّفني بدعوى! وسأموت بعدها من العزلة والجوع! فهل هذا ما تريده لي؟

قلت له إسمع:

إن استطعت أن تبني دعوى في هذه القضية، فستكون فاتحاً مُلهَماً، وستكون علامة في تاريخ المحاماة والقضاء عامّة، في لبنان وفي الدنيا، وستُسدي للبشرية خدمةً تاريخيّة، خدمة في أهميّة اكتشاف النار واختراع الدولاب، ستكون خدمة أهمّ من اكتشاف فرويد للاّوعي، وماركس لفائض القيمة، وأينشتاين للنسبية. ستخفف من آلام الناس. إنّ الصدمات العاطفية والخيانات والشكّ والوعود الكاذبة وما إلى ذلك، تسبّب للناس آلاماً لا تُحتمل، وإنّ البشريّة قادرة، في رأيي، على التخلّص منها.

(انتبهتُ إلى أنّني استعملت عبارة «في رأيي» وأنا أحاول إقناع صديقي المحامي، وانتبهت إلى أنّ هذه العبارة غالباً ما تُضعِف الرأي، فندمتُ على استعمالها.)

خذ يا صديقي الأمور بذكاء! قلت له راجياً ناصحاً. خذها بروّية! تأمّل مثلاً في حالتي، تأمّل في حياتي، فهل يحقّ لامرأة أن تستخفّ بحياتي إلى هذا الحدّ. لن آتي على ذكر كرامتي، دَعْها على حدة، فقد لا يأخذ القاضي بها مع أنّها مهمّة جدّاً. لنقصر حديثنا الآن فقط على الضرر النفسي والجسدي الذي سبّبته لي والذي هو بادٍ للعين.

خُذْ!

وكشفت له عن وثيقتين، واحدة هي بيانٌ لدقّات قلبي، تاريخها بعد أن طلبت منّي أن أنجبها طفلاً «يكون له ذكاء عينيّ»، فقد ذهبتُ فوراً بعد تلك الرسالة إلى المستشفى، وأمضيتُ فيها يومين كاملين، وأجريت جميع الفحوصات اللازمة، وذلك حتّى أتأكّد من أنّ صحّتي جيّدة، قبل أن أخطو هذه الخطوة التي تطلبها منّي. أردت أن أتأكّد من صحّتي أوّلاً حتى لا أغشّها في شيء، وحتّى أكون صادقاً معها في كلّ شيء، وحتى تكون علاقتنا مبنيةً على الاحترام والصدق والوضوح. أردت أن أتأكّد من صحّتي قبل أن ألتزم بالعيش معها، حتّى لا تكون في موقع المُجبَرة على أن تتحوّل إلى ممرضّة لي، إن أصابني فيما بعد مرض أحتضنه الآن، وقد يظهر بعد انتقالنا للعيش في ظلّ سقف بيت واحد.

انظرْ يا صديقي إلى بيان ضربات قلبي! إنها طبيعيّة مئة في المئة. وانظر الآن إلى البيان الثاني الذي أجريتُه منذ أيّام فقط بعد أن هجرتني بأيّام فقط: أنا الآن مصاب باضطراب في دقّات القلب، وهذا عطل خطير، هذا مرض اسمه بالأجنبيّة «اكستراسيستول»! (عاشت الأسامي!)، وعليّ الآن أن أبتلع حبّة دواء اسمها «كونكور»، كلّ صباح لمدة سنوات وربما طوال العمر أو ما تبقى لي منه. وثمن العلبة عشرون ألف ليرة لبنانيّة (حوالي أربعة عشر دولاراً أميركيّاً) وفيها ثلاثون حبّة فقط لا غير. وهذا يعني زيادة مصاريف على مدخولٍ شهريٍّ لا يزداد بل تتدنّى قيمته الشرائيّة، لأنّ التضخّم يزداد، والبلد نحو الخصخصة، والذين مثلي ومن طبقتي الاجتماعيّة إلى انقراض.

أليست هذه حالة قانونيّة؟

أنا جادّ يا صديقي إلى أقصى الحدود. أنت تعرفني أكثر من أيّ

شخص آخر، وأنت أقرب الناس إليّ، وتعرف أنني بكامل قواي العقلية والنفسيّة، وتعرف أنني أكثر الناس اتّزاناً ورجحان عقل وحكمة، لكنّني الآن أتألّم، وقد أصبت في نفسي وفي جسدي وفي أخلاقي، وأطلب العدل ومقاضاةَ من أضرّ بي. ووقّعت له شيكاً بألفَي دولار، سحبته ممّا كنتُ أدّخره لشيخوختي لأنّني لست مشتركاً في أيّ مؤسسة لضمان الشيخوخة، رسميةً كانت أو خاصّة، وناولتُه إيّاه قائلاً: لنتعاملْ في هذه المسألة كمحام وموكّل، ولنبقَ صديقين حميمين. لنكنْ ذكيّين، ولنُقِم الحدود الواضحة بين الأشياء، بين الصداقة والعمل.

قلتُ له: جاءتني بعد هذه المحاضرة البائسة في الجامعة الأميركيّة، ودعتني هي بنفسها إلى المقهى، وراحت تخبرني قصّة حياتها بالتفصيل، على مدى ساعات، ثم انتهينا في الليلة ذاتها في بيتي وفي فراشي، ونامت على صدري مستسلمة كطفل رضيع آمِن وشبعان.

ثمّ فاجأتني بخبرها المزدوج: هجرُها لي ولقاء رجل مناسب. وحجّة الرجل المناسب هذه، هي دليل آخر على سوء نيّتها، وعلى أنها كانت تستعملني كمحطّة في انتظار رحيل مقبل. كنتُ عصا تتكئ عليها للوصول إلى هدفها الأخير: الرجل المناسب.

ومنذ ذلك التاريخ اضطربت دقّات قلبي. وفوق ذلك اضطرب بولي، فبعد أن كان عاديّاً صار عليّ أن أذهب إلى الحمّام تكراراً.

تعبتُ من الذهاب المتكرّر إلى الحمّام، ليلَ نهار ليل نهار، أنهض في الليل من نومي عدّة مرّات لأبول، ولم يكن هذا يحدث لي، إذ كنتُ أنام مِلْءَ جفنَيّ طوال الليل لا أفيق لشيء. طمأنني الطبيب

المختصّ، بعدما اطّلع على الصور، ونتائج الفحوصات المخبريّة، وما إلى ذلك، طمأنني بأنّه ليس هناك من شيء خبيث ـ يقصد السرطان ـ وبأنّ كلّ ما في الأمر هو تضخّم مستجدّ(!) في البروستات، يزول بالتداوي أو يحدّ الدواء من تطوّره، وإلاّ فسنُضطرّ إلى استئصالها بعمليّة جراحيّة. لذلك نصحني بأن أتدبّر أمري في أسرع وقت إذا كانت لديّ الرغبة في الإنجاب، لأنّ الإنجاب يستحيل بعد استئصال البروستات.

ـ خُذْ!

وأريته نتائج الفحوصات والصور التي تظهر وجود التورّم في البروستات، وتلك التي أجريتُها قبل أشهر فقط، والتي تُظهر أنّ كلّ شيء كان طبيعيّاً جدّاً.

ما من شيء يُفحص فيّ إلاّ فحصتُه قبل أن أتّخذ قراري بالعيش معها والإنجاب منها، وخصوصاً البروستات. ركّزتُ على البروستات التي كانت شغلي الشاغل، لكثرة ما يُقال إنّ الرجال المسنّين يُصابون بها.

صديقي المحامي قال لي بعدما أعطيتُه كلّ هذه الحجج والبراهين والوثائق، وكلّ ما يحتاج له ملفّ الدعوى حتّى يتشكّل، قال لي: دعني أفكّر. أعطني مهلةَ أيّام أستشير خلالها بعض الزملاء، وأراجع نوادر كتب القانون. قلت له: خذْ وقتك لكن لا أكثر من وقتك، لأن علينا أن نضرب الحديد وهو حام. وقال لي: لا داعي لأقبض منك بدل أتعابي منذ اليوم وقبل أن أقرّر تسلّم الدعوة.

وبعد أيّام جاءني وقال لي اسمع: لقد فكّرت عميقاً جدّاً في الأمر،

وأعجبتني الفكرة كثيراً، وقد قلّبت الأمر على جميع جوانبه، وتمنّيت من كل قلبي أن يكون ذلك ممكناً، لكنه يا صديقي غير ممكن! أكرر لك إنّها فكرة رائعة، ولو كانت ممكنة ولو بنسبة ضئيلة لتبنّيتُها، لكنّ القانون لا يسمح بإقامة دعوى على سيّدة بسبب تبدّل عاطفتها نحو من كانت تحبّ.

لم تقنعني حجّة المحامي، لكنّ موقفه أبطأ اندفاعي، وبدأ غضبي في الوقت نفسه يهدأ ويتحوّل إلى حزن ينتشر في أنحاء الجسم والروح، ويخدّرني كالنعاس.

المصيبة كلوح الصابون، تبدأ كبيرة ثم تصغر شيئاً فشيئاً.

وكلّما كان الحزن يزداد انتشاراً في خلايا النفس والجسد، كان السؤال المؤرق الموجع يزداد إلحاحاً: لماذا هجرتني؟ هل لشيء فيّ أم لطبيعة فيها؟ أم هو لشيء بيننا ولا يتعلّق بأحدَينا منفرداً؟ وكان هذا السؤال يذكّرني مباشرة، بالأفلام الأميركيّة التي كانت تأتي بها لنشاهدها معاً، وبخاصّة الأفلام الأولى التي أتتْ بها واحداً تلو الآخر، ورغبتْ بقوّة في أن نراها معاً، وكانت تجلس إلى جانبي ملتصقةً بي، وتروح تترجم لي المقطع تلو المقطع.

وقررتُ أن أشتري تلك الأفلام، الواحد تلو الآخر وبالترتيب نفسه، وهي كثيرة أذكر منها بعض ما شاهدناه معاً في المرحلة الأولى من علاقتنا:

«نهاية العلاقة» (The End of the Affair) وهو الفيلم الذي أمضينا الوقت الطويل في مشاهدته. و«عينان مغمضتان» (Eyes Wide Shut) وهو الفيلم الذي أثار بيننا بعض الجدل، و«خفّة

الـكـائـن الـتـي لا تـطـاق» (The Unbearable Lightness Of Being) وهو فيلم مأخوذ من رواية ميلان كونديرا التي تحمل العنوان ذاته، و«جمال أميركي» (American Beauty) وغيرها.

وقررت أن أشاهدها بتأنٍّ، وأن أدرسها بعمق.

وصرتُ، كلّما شدّني الحنين إلى هامة، وآلمني السؤال عن سبب هجرها لي وأعياني الجواب، أضع فيلماً من هذه الأفلام، وأروح أشاهده بانتباه وتركيز شديدين، محاولاً أن أرى بعينيها، وأن أفهم بعقلها، وأن أنفعل بعواطفها، علّني أتوصّل إلى معرفة السبب الذي دعاها إلى هجري، بعد هذه العلاقة التي اتحدنا فيها اتحاداً، وذاب فيها واحدنا في الآخر.

وكنت كلّما ظهرتْ هذه الحروف، حروفُ الترجمة العربية، أخفيها فوراً، متذكّراً ما كانت تقوله لي هامة عن ترجمة المحكية الأميركيّة إلى الفصحى العربية المكتوبة، وعن ضرورة أن أتعلّم الإنكليزية.

كنت أخفي هذه الحروف إذن من أسفل الشاشة، لتبقى لي اللغةَ الإنكليزيّة وحدها، فلا أعود أفهم حرفاً واحداً مما يُقال، ولا حرفاً واحداً ممّا يُسكت عنه أو يُضمر. وأخسر فوق ذلك لغة الأجساد، لأنّ هناك علاقة ضروريّة بين الجسد والكلام.

ثمّ أحوّل الصوت إلى اللغة الفرنسية، فيتحسّن الوضع قليلاً، لكنّ المشكلة تبقى قائمة.

يجب أن أتعلّم اللغة الإنكليزيّة، لا مفرّ من ذلك إذا كانت لديّ الرغبة الفعلية في فهم معاني هذه الأفلام وبلوغ مراميها، لأنها أفلام

ناطقة بطبعها باللغة الإنكليزية.

كنتُ دائماً، حين أتأكّد أنّه لا مفرّ لي من تعلّم الإنكليزيّة، أتذكّر ذلك المقطع الذي جابهني وأنا أحاول تتبّع أخبار العراق في «الهيرالد تريبيون»، فتُعتم الدنيا أمامي! يقول هذا المقطع:

As one-12 year- old self- taught English- speaker from Iraq's southwestern Bassora province says: if you can't read and speak English you're deaf and dumb.

أمضيتُ ساعة أحاول فكّ ألغاز هذا المقطع الواحد. فأيّ عربيّ عاقل يدبّ مثلي دبيبَ طفل في الإنكليزيّة يستطيع فهم هذه العبارة؟ ومن أين يبدأ عاقل عربيّ مثلي وكيف ينتهي! ما هذه القارّة من المجاهل؟ ما هذه المتاهة من الدهاليز والغرف المؤدّية إلى غرف؟ وإنّها لعبارة بحاجة إلى نفَس عميق وطويل، أطول من صبر العرب على المآسي التي سبّبها لهم النفط في صحاريهم القاحلة، وأطول من مأساة فلسطين، وأطول من حرب لبنان، وأتمنّى ألاّ تطول حرب العراق.

لن يكون سهلاً عليك يا «حبيبو»، أن تفهم حقيقة ما يجري في العراق، عن طريق اللسان الأميركي!

لكنّني فهمتُ سريعاً العبارة الأخيرة التّي فتّشتُ فيها عن كلمتين فقط:

deaf

«أصمّ»

dumb

«أبكم، غبي»

ومعناها: «من يجهل الإنكليزيّة هو أشبه بالأبكم الأصم الغبي.»

هذا هو معنى العبارة الأخيرة بالتأكيد، ولا أظنّ أنّني مخطئ في فهمه. وإنّه ــ وقد فهمتُه ــ لكلامٌ مؤذٍ!

لا شكّ أنّ هذا الصحافي الأميركيّ، الذي نقل هذه العبارة، كما يقول، عن شيخ أو فتى عراقي، قد تلذّذ بها. لكنّه كلام مؤذٍ في أيّ حال. فقد باتت الإنكليزيّة لسان الناس وآذانهم. لقد قرّر الصحافيّ ذلك على لسان العراقي. ومن لا يملك هذه اللغة يكون كمن لا يسمع ولا ينطق. لكنّه يبقى يرى ويحسّ ويلمس. وهذا كثير كثير ليدرك بقوّة أنّه لا يسمع ولا ينطق!

لكنني بعد مدّة تحسّنتُ وصرت أقلّ بطئاً في القراءة، وتعلّمت بهذه المناسبة كثيراً من المفردات والتعابير، مثل:

US- led- coalition

و:

Since president Georges W. Bush declared the end of the major operation

هذه العبارة التي كانت تتكرّر مرّات عديدة في الخبر الواحد والمقال الواحد، كأنّها تعويذة لإقناع الذات، أو لتفادي الخطر... خطر ألا تكون «العمليّات الكبرى» قد انتهت..

لكنني، ما إن توقّفت عن القراءة، سرعان ما نسيتُ أكثر الذي

حصّلتُه. وقد توقّفتُ لأنّ الجهود التي بذلتها كانت أكبر بكثير من النتائج المتواضعة التي حصلت عليها.

كان حلمي أن أسمع الأخبار بالإنكليزيّة وأن أفهمها، لكنني بقيت لا أستطيع تمييز حرف واحد ممّا أسمعه إن حاولت! التقدّم الوحيد الذي أحرزتُه، هو أنّ الجريدة أصبحتْ أكثر أنساً بالنسبة إليّ من السابق.

لكن لا مجال الآن للتراجع، مهما تكن ذكرى المحاولات السابقة محبِطة، خاصّة أنّ قناعتي تزداد يوماً عن يوم، بأنّ هذه الأفلام تجسّد وجدان هامة، وأنّ إدراك أسرارها هو فقهٌ لوجدان هامة.

إنّ في هذه الأفلام كلّ العناصر التي تشكّل محتوى وعي هامة، فإذا ما فهمتُها فهمتُ ما يُفرحها وما يُغضبها، وفهمتُ ما تحبّ وما تكره، وفهمتُ ما يجب أن تكون عليه صفات الرجال بالنسبة إليها في الشكل والجوهر، وما يجب أن تكون عليه العلاقة الناجحة.

لو أستطيع أن أتذكّر في أيّ مناسبة كانت تأتي بهذه الأفلام! لأنّ لهذه المناسبة فائدةً قصوى في فهم سبب اختيارها فيلماً بعينه دون غيره.

أظنّ الآن أنّها كانت تأتي بفيلم كلّما كانت علاقتنا تمرّ بنوع من الفتور، أو كانت تعترضنا صعوبة، وكانت تقول لي وقتذاك:

ـ نحن حبيبان، لا صديقان!

وكانت تأخذني بين ذراعيها وتشدّ عليّ وتقول بشيء من الرجاء:

ـ خلّيك مولّعني! بليز بليز بليز! (كانت تردّد بليز بالإنكليزيّة!)

هامة بحاجة إلى مشاعر هادرة على الدوام. وإنّي على يقين أنّها التقطت هذه الحاجة، أثناء إقامتها الطويلة في إنكلترا وأميركا. التقطتها في الغرب. إنّها مدمنة على هذه المشاعر، ولا تستطيع الاستمرار بدونها.

حين جاءت بالفيلم الأوّل The End Of The Affair كنتُ غافلاً عن هذا الأمر، أقصد عن مسألة السبب الذي دفعها إلى اختيار هذا الفيلم لا غيره، مع أنّني كنت منصرفاً بالكامل إلى حلّ مشكلة أورغاسمها، وكنت مأخوذاً بهذا الهمّ الذي تحوّل سريعاً إلى وسواس، لأنني كنت مقتنعاً بأنّ نجاحي هو الضامن لاستمرار علاقتنا وديمومتها. إنّها لم تبلغ لذّتها إلاّ نادراً وفي علاقات غير مستقرّة، وذلك منذ زمن بعيد، منذ بدأ الخلاف يدبّ بينها وبين زوجها وحتى اليوم، وقد شاركها الفراش بعد زوجها عدد من الرجال، اثنان أو ثلاثة أو أكثر لا أدري (ليس هذا المهمّ)، ولم ينجح أحد منهم في إقامة علاقة مستمرّة معها لحسن حظّي، وإلاّ لما كانت وصلت إليّ! ورغم ذلك لم أربط بين سبب اختيارها هذا الفيلم، وبين هذه المشكلة.

أنا أعرف جيداً أنّه لأمر مهمّ بالنسبة إلى الرجل أن يرى المرأة بلغت لذّتها معه في الفراش. هذا أمر شديد الأهمية. خصوصاً بالنسبة إلى الرجل المعاصر، الذي يعرف أنّ المرأة ندٌّ له، من كلّ النواحي، ومن هذه الناحية بشكل خاص. ثم إنّ بلوغ المرأة لذّتها، إضافة إلى كون ذلك من حقّها، هو تأكيد على رجولة الشريك وذكورته. أقول ذلك بالمعنى الإيجابي لا بالمعنى المعادي للنسويّة. C'est gratifiant

كما يُقال بالفرنسيّة. يشعر الرجلُ ساعتَها بالرضى والامتلاء وبأنّه مفيد وله لزوم ودور. ورغم ذلك لم أربط ما بين اختيارها هذا الفيلم وما كنتُ أسعى إليه.

أذكر جيّداً أنّها كانت لم تبلغ مرّة واحدة معي، منذ بدأنا نتشارك الفراش، حين جاءت بهذا الفيلم. فأنا الآن على يقين بأنّ هناك علاقة وثيقة إذن ما بين الأمرين، أي ما بين فشلي في إيصالها إلى الأورغاسم ورغبتها في أن نشاهد هذا الفيلم معاً، لأنّ في هذا الفيلم مشهداً تبلغ فيه الزوجة لذّتها مع عشيقها، وتطلق صرخةً قوية فيضع عشيقها يده على فمها، خوفاً من أن تتابع الصراخ ويسمعها زوجها أينما كان في هذا البيت الكبير المؤلّف من طبقتين، وقد كان زوجها بالفعل في البيت. ثمّ سألها العشيق بصوت منخفض:

ـ ماذا لو أنّ زوجك سمعك؟

فأجابته جواباً فظيعاً، قالت:

ـ لن يعرف ما طبيعة هذا الصوت!

أُقسم بالله العليّ العظيم بأنّني حمار! لأنّني لم أربط يومها بين هذا المشهد وبين حالتي مع هامة، وأقصد بحالتي مع هامة عدم نجاحي حتّى تلك اللحظة، في جعلها تبلغ لذّتها ولو لمرّة واحدة!

لن يعرف زوجها ما طبيعة هذا الصوت إذن، ولن يفهم معناه، لأنّه لم يسمعه منها طوال مدّة زواجهما التي مضى عليها حتّى الآن عشر سنوات. لأنهما لا يمارسان الجنس، ولأنهما يعيشان كصديقين فقط تحت سقف واحد.

عندما أوقفتُ هامة الفيلم لتشرح لي ما جرى، قلت لها أعيدي

المشهد «بليز»، فأعادته، وحاولتُ أن أسمع جواب الزوجة لعشيقها بالإنكليزيّة، لكنني لم أنجح في تمييز كلمة واحدة منه، لكنّ هامة ترجمت لي الجواب بأمانة تامّة، لأنّها هي أيضاً أدهشها هذا الجواب.

ظننت للوهلة الأولى أنّ هامة دهشت بهذا الجواب لقوّته، وللأذى العميق الذي يسبّبه للزوج، وللمفاجأة التي يُحدثها عند السامع، ثمّ إنّني ظننتُ أيضاً أنّه فاجأها ببلاغته، وبقدرته على قول الكثير في قليل من الكلام، في عبارة واحدة، لكنّها أجابتني عندما استفظعتُ هذا الجواب صراحةً، واستفظعت قساوتَه التي تصيب الزوج بشكل خاصّ، أجابتني بأنّه ليس عليّ أن أفهم الأمر من خلال كليشه «الزوج المخدوع»، فما هذه إلاّ كليشه قديمة مكرّرة ومجترّة، ولا معنى لها ولا تنفع في شيء.

ـ أنت كاتب! قالت لي بنبرة عالية كأنّما أرادت أن توقظني من غفلة أو سهو، أو كأنها أرادت أن تنتشلني من وحل أنا غارق فيه.

ـ أنت كاتب! وعليك أن تتخطّى هذه النظرة الأخلاقيّة التقليديّة إلى الأمور!

ثمّ قالت ممازحةً، وبدلع غاوٍ:

ـ أمّا أنت فكنت ستعرف فوراً ما طبيعة هذه الصرخة، حتّى ولو كان على فمها كاتم للصوت.

أرادت أن تطمئنني.

وأخبرتني هنا، برهاناً على ما تقوله وتأكيداً عليه، أنّ إحدى زميلاتها

في العمل، سألتها لمّا علمت بفارق السنّ بيني وبينها، عن حالي في الفراش فأجابتها: عاديّ! وأضافت أنها لم تخبرها بالحقيقة خوفاً من أن تضع عينها عليّ، لأنها من نوع النساء اللواتي يفتّشنَ عن رجال أشدّاء. قلت لها عند ذاك ممازحاً: ألا تثقين بي؟ قالت: بلى ولكن ما نفع اللعب بالنار؟ فأنا أريدك لي، وأريدك محبوساً فيّ. فقلت لها وقد شعرت بالرضى والأهمّية: أعمل إذن بنصيحة زاهي وهبي، وأصبّ نُسخةً عنه كما تُصبُّ نسخة عن مفتاح («بصُبّ عليه»)، وتعيرين النسخة إلى من تحبّين من صديقاتك، ويبقى الأصل لكِ. قالت: لا! بعدما ضحكت حتّى صارت تسعل ـ لأنهنّ إذا ما ذُقنَ النسخة فسيربطن أحزمةً ناسفة حول خصورهنّ، ويفجّرن أنفسهنّ، إذا لم يستطعن الحصول على الأصل.

لكنّ محاولة هامة طمأنتي، نبّهتني إلى سبب مفاجأتها ودهشتها من جواب الزوجة. لم تكن بلاغة الجواب ما أدهشها إذن، بل قدرة الممثّلة على قول هذه الحقيقة الصادمة والعصيّة على القول. وهذا ما تعاني منه هامة بالذات، لكنّها لا تصرّح به. هامة تعاني من أنّ لا أحد من شركائها الرجال، بمن فيهم زوجها على الأرجح، يستطيع التعرّف على طبيعة صوتها، إذا ما صرخت من أعماقها عند بلوغ لذّتها الأوج، لأنّه لا أحد منهم جعلها تصل إلى هذه الدرجة من المتعة، إلى حدّ الانفجار، وهذا أمر تحتاج إليه في أعماقها. وهو ما تراه حقّاً طبيعيّاً من حقوقها بل حقّاً مقدّساً.

لم يجعلها رجل تنفجر شظايا، كما تشتهي وكما تحلم.

وفي سنّ الستّين تصبح الأمور أكثر صعوبة، وذلك رغم الخبرة التي يكون الرجل اكتسبها على مرّ الأيّام (لكنْ أي خبرة اكتسبتُها أنا في هذا المجال؟ ومن أيّ تجارب؟) ثم إنّ «العنتريّات» التي كان

يمارسها الستّيني في سنّ الشباب، تصبح ذكرى أليمة مهما تكن جميلة.

لكنّني لم أستسلم، وقد قرّرتُ النجاح، لأنّ ثمن النجاح مهما يكن غالياً فلن يكون أغلى منها، فاستأجرت فيلم بورنو، وشاهدتُه قبل مجيئها بقليل، واستمنيت عليه ثم أعدت مشاهدة مقاطع منه قُبيل وصولها. كان مفعوله قوياً. ويبدو أن مفعول هذه الأفلام يتضاعف إذا كان المشاهد مثلي غير مدمن عليها، وأنا نادراً جدّاً ما أشاهد منها، مرّةً كلّ عدّة سنين في مناسبات نادرة ومن باب الفضول، فأذهب وأستأجر فيلماً بالسرّ لأنّ تجارة هذه الأفلام الرائجة جدّاً ممنوعة قانوناً، وأُعطي صاحب المحلّ اسماً مستعاراً، خجلاً من أن يعرف اسمي الحقيقي، وخوفاً من أن «تكتشف» شرطة الأخلاق عملية الاتجار هذه وتحقّقَ فيها.

أقول دائماً في نفسي، كلّما ذهبت لأستأجر فيلماً من هذا النوع، إنّه عليّ أن أشتري عدداً من هذه الأفلام دفعةً واحدة، وأن أحتفظ بها، بدل أن أعرّض نفسي لهذه التجربة المحرجة كلّما احتجتُ إليها، لكنّني حتّى الآن، وقد بلغ عمري الستّين، ما أزال أخجل من أن أحتفظ في بيتي بفيلم من هذا النوع. أخاف أن يكتشف ذلك أحد، رغم أنّني عازب لا زوجة لي ولا أولاد، بل أخاف أن تكتشف ذلك المرأة الشريكة ذاتها. أنا بدائيّ في هذا المجال وأعرف ذلك.

إذن كان هذا الفيلم فعّالاً! وانتظرتُ مجيئها وأنا في جهوزيّة تامّة إلى أن جاءت، فاستقبلتها بحماسة وتصميم على النجاح، وكان مضى على علاقتي بها في ذلك اليوم أسابيع طويلة، وأنا لم أفلح بعد في تأكيد ذكورتي، ولا في تمييز نفسي عن الآخرين الذين

عرفَتْهم، ولا عن زوجها الذي عرفتْ معه المتعة الكاملة، في المرحلة الأولى فقط من علاقتهما كما تزعم.

إنّها الآن فرصتي، فإن نجحتُ في استغلالها ميّزتُ نفسي عن الآخرين في حياتها، وفزتُ بهذا الكنز الذي ليس ذهباً ولا ماساً ولا أحجاراً كريمة، بل هامة!

فإلى ماذا تسعى خيراً من متعتها امرأةٌ جميلة تعمل في هذه المؤسسات الدوليّة السخيّة، بأجر شهريّ يحسدها عليه مئات الملايين من الرجال الشباب والمكتملي العمر، في العالم أجمع؟

استقبلتُها إذن وأنا على استعداد مضاعف: استعداد من حيث إنني ما زلت مستحلباً نفسي، فبلوغي مرّة ثانية سيكون أمراً صعباً جدّاً، وسيطول وقت حدوثه لا شكّ أكثر من طاقتها على التحمّل، وثانياً إنّني ما زلت مهتاجاً وقد هيأت نفسي لذلك بمشاهدتي مرّة ثانيةً قسماً من فيلم البورنو.

فاجأتني حين قالت لي لماذا العجلة!

كانت عائدة من عملها مباشرة، دون أن تمرّ ببيتها لترتاح كعادتها، ففترت حماستي فجأة، وتدنّت درجة استنفاري وارتخيتُ. قالت: أريد كوباً من الشاي. وجلست على الكنبة ومدّدت عليها رجليها، وانحسر فستانها عن ساقين كالنعمة، فانحنيت وقبّلتهما طويلاً وهي تداعب ما تبقّى من الشعر أسفل رأسي (شعر رأس الرجل مؤنس للمرأة!) ثم نهضتُ إلى المطبخ وحضّرتُ لها فنجان الشاي وسكبتُ لي كأساً من الويسكي، وعدتُ إلى جانبها وجلستُ مسروراً كعادتي، سرورَ من هو شاعر بأنّه وصل.

هذا ما دوّنته مساء ذلك اليوم:

«حين أكون مع هامة أشعر بهذا: بأنني وصلتُ، وليس في العالم مكان آخر أبغيه أو أحلم به. فأنا واصل حين أكون معها، ولو كنّا مسافرَيْن في قطار أو طائرة إلى مكان بعيد.

لم أستعجل الوصول وأنا معها إلى مكان قصدناه. لم يكن يزعجني أن نتأخّر أحياناً عن مسرحية أو عن فيلم سينمائيّ أو عن عشاء أو عن أيّ موعد آخر، لم يكن هذا يثير غضبي. لأنّ هامة نقطة انطلاقي ونقطة وصولي ولأنّها محجّتي. لأنّ وجودها إلى جانبي هو الأهمّ لا الوصول على أهمّيته.

هاما قِبلتي: حين أكون بعيداً عنها أسعى لبلوغها، وحين أصل إليها أروح أدور حولها».

وكنت في الوقت نفسه، وأنا جالِس لصقها على الكنبة، قلقاً من هبوط درجة استعدادي، بعدما أجريتُ كلّ هذه الترتيبات التي أبقيتها سرّاً عنها لا تدري به. ثم رحتُ أهيّجها بالمحادثة وبتدليك رجليها بالزيوت التي كانت تأتي بها وتتركها عندي، ثمّ بالمداعبة باليد والشفتين وما إلى ذلك. وقد استعدْتُ جهوزيّتي لحسن حظّي بالكامل.

لا أكون كاذباً أو مدّعياً الفحولة، إذا قلت إنني بقيتُ فيها أكثر من ساعة! ولا أنا بلغتُ خلالها ولا هي بلغت. حتّى تعبتُ وصار العرق على جسمي كأنني خارجٌ من تحت مرَشّة الحمّام دون أن أتنشّف.

ثمّ انتبهتْ هي برقّتها وذكائها، إلى ما كنتُ أبغيه من كلّ هذا الجهد الذي أبذله، فقالت لي: بما أننا صرنا على هذه الدرجة من الحميميّة، أريد أن أصارحك بأنّني لا أستطيع بلوغ الأورغاسم إلاّ بمداعبة البظر! وباللسان خاصةً!

لقد انكشف السرّ!

انكشف السرّ أخيراً فجأةً، وأصبح كلّ شيء في الضوء.

ـ ولماذا لم تخبريني من قبل؟ لماذا أخفيتِ هذا الأمر عنّي حتى هذه الساعة؟

ورحت أقبّلها وأنا أعاتبها على إخفائها السبب إلى الآن، ثمّ انكببتُ على المكان الذي أشارت إليه بلساني وشفتيّ وما أملك، أداعب وألهث لهاثاً دافئاً وكالنسيم، وكنتُ متمتّعاً، وبقيت كذلك طويلاً.

حتى عييت!

ثم أنهضتني عنها بعدما شعرتُ أنّ عضلات لساني ارتخت، وكذلك عضلات الحنك والشفتين اللتين باتتا عاجزتين عن منع الريق من أن يسيل عليها، وقد أحسّت بذلك وقالت وهي الحكيمة:

ـ دَع الأمور تأتي من تلقائها وفي حينها.

وودِدتُ هنا أن أطمئنّ، فسألتها بصوت منخفض معتذرٍ، إن كانت أعلمت شركاءها السابقين بأنها لا تبلغ إلاّ بهذا الشكل، فهزّت بكتفيها. ثم كرّرتُ اعتذاري وشرحت لها دواعي السؤال، قلت لها إنها سعادتي التي أريد أن تدوم، والكنز الذي أريد أن أحافظ عليه بأي ثمن كان، لذلك أردت أن أعرف ما إذا كان فشل شركائها

عن جهل لأنّها لم تعلمهم، أم عن عجز لأنّها أعلمتهم ولم يفلحوا.

وفي الأيّام القليلة التالية تحاشيتُ اللقاء بها، لأنني كنت موجوعاً بشكل لا يُحتمل. وجعني قضيبي بسبب الاحتكاك والانتصاب المستدامَين يوم أمس.

واعتذرتُ لها عن عدم استطاعتي اللقاء بها بحجّة اختلقتُها وصدّقتها، لأنه ليس من عادتي أن أكذب عليها.

وقد أخذتُ موعداً مع الطبيب المختصّ بالأعضاء التناسليّة بعد أيّام طويلة، ولم أنجح في تقريبه أكثر من ذلك رغم إلحاحي، وانشغل بالي بخصوص ما يمكنني فعله حتّى لا تنتبه إلى ما بي، وفكّرت طويلاً بالحجج التي يمكن أن تُقنعها بأنّ غيابي مبرّر، دون أن يثير ذلك ريبتها، وهي التي باتت تعرفني كما تعرف كفّ يدها، وباتت تعرف من أنا ومن أصحابي ومن أصدقائي ومن أعدائي، وكيف أمضي نهاري، ومتى آكل ومتى أجوع، ومتى أغفو ومتى أصحو، ومتى أعمل ومتى ألهو، وأين.

كانت متعتي العظمى أن أخبرها عن نفسي، وقد تمنّيتُ طويلاً أن تدوّن تلك الأخبار، لنصدرها يوماً في كتاب يكون عنوانه: «حبيب بقلم هامة».

تدبّرتُ أمري عدّة أيّام، حتّى لا تزورني أثناءها في بيتي، وحتّى لا أزورها في بيتها، وحتّى لا ألتقي بها في مكان مؤاتٍ للحميميّة، وكنت أسعى دائماً لألتقيها في مطعم أو مقهى، أو في مكتبها إن لم أستطع تفاديه، حيث كنت شديد الحذر لئلاّ تقترب منّي، كما كان يحلو لها أن تفعل أحياناً. لم يكن في استطاعتي.

طمأنني الطبيب لكنّه نصحني بالاعتدال، لأنني وأنا في هذه السنّ لم أعد في عمر الشباب. اكتشف البارود!

كان هذا الطبيب محافظاً شديد المحافظة، لأنني حين سألته عن معنى الاعتدال من حيث عدد المرّات قال: مرّة كلّ أسبوعين أو مرّةً كلّ شهر! قلت: من الصعب على الإنسان مهما يكن متقدّماً في السنّ أن يقتصد إلى هذا الحدّ إذا كان في ظرف معيّن. فقال:

ـ غيّرْ ظرفَك!

ولمّا نظرتُ إليه بعينين متسائلتين قال: لا تتواجد في مكان يثيرك، لا تتفرّج على مباراة التنس النسائية مثلاً.

ـ مباراة التنس؟ تساءلت مندهشاً، وأضفت: هذا لم يخطر على بالي. قال: بلى مباراة التنس!

ذهب فكره إلى مباراة التنس النسائية، ولم يخطر في باله أن أكون في علاقة مصيرية مع سيّدة مثل هامة.

قلت له: وهل أجمل من أن يثيرك جمال امرأة أو شبابها أو أي شيء فيها، شرط أن يبقى هذا شأنك وحسب. فأجابني بلؤم لم أتوقّعْهُ: بما أنّك تعرف أكثر منّي فلماذا جئت تستشيرني؟ ثم أضاف: يؤثّر الانتصاب في سنّك سلباً على البروستات، وبخاصّة الانتصاب لمدّة طويلة. فشكرته على هذه النصائح وخرجت.

هذا طبيب أحمق. يريد أن يُقيلني من أجمل ما في الحياة لأنني فقط بلغت هذه السنّ. ولم أسمع من غيره من قبل أنّ الجنس مسيء إلى البروستات، ثمّ إنّه يريد أن يمنعني عن متعة مشاهدة

مباريات التنس النسائيّة لئلا أُثار جنسيّاً! ما هذا المنطق؟ شكراً لهنّ، للاعبات التنس إذا استطعن إثارة من هم في الستين من العمر وما فوق، عبر شاشة التلفزيون وهنّ على بعد آلاف الأميال، وألف شكر أيضاً، فهل أجمل من أن يشعر ستينيّ مثلي بأنه حيّ له جسد ونفس ورئتان عميقتان وعينان يقظتان؟ الشعور بالرغبة شعور بالحياة يا هامة فألف شكر لكِ وألف سلام عليك يا امرأة باركتك السماء، وأرسلتكِ غمامةً تروي يباسي.

الآن فهمت كيف يجب أن أتصرف أثناء لقائي الحميم بها. فمن الآن وصاعداً لن أتلهّى بالولوج، الذي لا ينفع شيئاً. (كم أنا بحاجة إلى الحديث معك الآن يا حسن!) لا خوف إذن من الوجع بعد الآن، ولا خوف حتّى من الإساءة إلى البروستات إذا كان ما قاله الطبيب صحيحاً، وهو ليس صحيحاً.

لقد تحرّرتُ يا هامة من الخوف والوجع، فلا شيء فيك لا يناسبني، ولا شيء فيك لا يصلح لي، بل إنّ ما قد تعتقدين أنّه مشكلة هو حرّية لي وخلاص. أنا عبدكِ وأنتِ حرّيتي.

بالفم وما يحويه ينقضي الأمر، وبأصابع اليد، وباللهاث شهيقاً وزفيراً.

لكلّ عمر مشاكل ولكلّ عمر حلول. إلاّ أن يأتي شيءٌ من عند الغيب فيعجز الإنسان أو تصيبه إعاقة، وهذا أمر آخر.

لماذا إذن يريدني هذا الطبيب أن أرفع يديّ استسلاماً للموت قبل الأوان؟

لن أستسلم.

ونجحتُ أخيراً!

ونجحتُ أخيراً، وتلوّتُ، وأطلقتُ تلك الصرخة المكبوتةَ منذ دهر في الأحشاء، تلك الصرخة الآتية من جنّة أو من حلم أو من الأعماق، من أعماق التاريخ، هديّةً مرسلةً إليّ من أحد فراعنة مصر العظام، أو من إحدى زوجاتهم، بل من نفرتيتي بالذات، إليّ شخصيّاً، وقد وصلتني الآن بعدما كانت منسيّة في أحد الأزمنة.

وبكيت من الفرح.
وبكيتُ من الشعور بالرضى والامتلاء، وأخفيتُ دمعي.

ثمّ تركتُها ترتاح ما شاءت، وأنا ما أزال أداعبها بهدوء وتأنٍّ، حتّى يتأكّد لها أنّ ما بين شفتيّ ويديّ ثمين ولذيذ، وأنّ ما ينعم به لساني ثمين ولذيذ، وأنّني لا أصبر على فراقه والابتعاد عنه.

ثمّ!

ثمّ نهضتُ ورحت أتنقّل عارياً في البيت!

عارياً أمامها!

وكانت تلك المرّة الأولى التي أتنقّل فيها عارياً في البيت أمامها.

أحسستُ بأنني الآن أستطيع، وكنت من قبل أخجل!

لقد أمدّني هذا النجاح بالجرأة والثقة بالنفس، وكنتُ من قبل لا أجرؤ، وكانت ثقتي بنفسي متدنّية.

وبما أنّني في معرض البوح والكشف عن الأسرار، فإنّني أستميح أصدقائي المناضلين والواقفين على الحياد عذراً لأقول:

في جسمي شيئان (أرفض أن أسمّيهما عاهتين) يمنعانني من الظهور عارياً أمام امرأة، عندما أكون معها في وضع حميم، الأوّل أنّني مُشعِر كثيف الشعر جدّاً في كلّ أنحاء جسمي، والثاني أنّ لديّ شامةً كبيرة أسفل الظهر، خُلقت معي ولم أستطع التخلّص منها بالمداواة التقليديّة، ولا عن طريق الطبّ الحديث. فلذلك أخجل من الظهور عارياً، قبل أن أحقّق نصراً صريحاً.

توّجتني هامة بحبّها لي ملكاً، على العالم.

وكانت تُدخل أصابع يديها كأسنان المشط في شعر صدري، وتحكّ أصوله حكّاً ناعماً برؤوس أصابعها وأظافرها، فأتساءل عندذاك: ماذا يفعل الرجال الذين لا شعر كثيفاً على صدورهم؟

وبعد نجاحي الرائع في هذا الامتحان العظيم، قرّرت أن أعرّف هامة إلى أختي غوى وإلى والدتي، وكنتُ قبل ذلك أتمهّل وأتروّى. ولمّا عرضتُ الموضوع عليها فوجئتْ أوّلاً، ثم رحّبتْ قائلةً: إذا كنت ترى الأمر مناسباً فلمَ لا؟

ـ «ليه لأ»؟

وكان اللقاء في شقّة والدتي الجديدة المقابلة لشقّة غوى، وكان مضى عليّ يومَها وقت طويل لم أزُرْ خلاله والدتي.

رحّبت والدتي بضيفتها كما ترحّب بأي إنسان يزورها، لكنّها لم تستقبلها استقبالاً خاصّاً، كما كان يجدر بها، وكما كنت أتوقّع

منها. وتحدّثتْ معها كما تتحدّث مع أي زائر غريب، لا كما يجب أن تتحدّث مع الزوجة المحتملة لابنها.

(وكانت والدتي في هذا اللقاء، تجيبني دائماً بعبارة: «نسيت!» كلّما سألتها عن شيء ما! لكنّني لم ألحظ أنّ ذلك كان مقدّمة لانحدارها الرهيب في هاوية النسيان والضياع والغياب، مع أنّ تردادها لهذه الكلمة لفت نظري كثيراً، وأزعجني كثيراً، وأثار أعصابي.

كنت لا شكّ في قلب العاصفة التي أثارتها هامة في حياتي المتّزنة!)

أمّا أختي فكانت جدّ لطيفة، وقد لفتت بالتأكيد نظر هامة بجمالها، إذ لا يمكن أختي غوى ألاّ تلفت النظر بجمالها. لكنّ التيار لم يجرِ ما بينهما للأسف الشديد... للأسف الشديد الشديد الشديد، وذلك على عكس ما توقّعتُه تماماً، ورغم ادّعائي بأنني لا أخطئ في تقدير أمور كهذه.

لم تصارحني أختي برأيها في هامة ولا هامة صارحتني برأيها في أختي. ولم تُبدِ هامة فيما بعد أيَّ رغبة في زيارة والدتي، ولا في لقاء ثان بأختي. ولا أختي أبدت أيّ إعجاب بها أو ما يشبه الإعجاب، ولم تسألني مرّة واحدةً وحيدةً عنها، إطلاقاً!

أختي من النوع الذي لا يتحمّل من أحد أن يشمخ عليه، وهي تزعم أنّ هامة وإن كانت من عائلة بيروتيّة غنيّة وعريقة فنحن من عائلة أكثر عراقة.

ربّما أحسّت غوى أن هامة تشمخ عليّ (كيف؟ ما الذي سمح لها

بذلك؟ لا أدري!) وأحسّت بالتالي أنها معنيّة. وربّما رأت أنه، بسبب موقع هامة ووظيفتها، وأجرها الشهريّ، وتجربتها ونشأتها وإقامتها في العواصم الكبرى، ثم بسبب الفارق الكبير في السنّ ما بيني وبينها، لن تبقى معي طويلاً، وهي إن بقيتْ فلن تكتفي بي ولن تكون الزوجة التي تسعدني، والتي تحبّ أختي أن تكون من نصيبي. ربّما رأت غوى هذا الرأي.

هذا الوضع جعلني أعدل نهائيّاً عن فكرة كانت بدأت تراودني، وهي أن أدعو أخي وأخواتي جميعاً، إلى عشاء عند الوالدة بحضور هامة، يكون بمثابة إعلان خطوبة.

وهذا الموقف من أختي ومن والدتي التي لم ألحظ شيئاً من أمر تدهور وعيها في ذلك الوقت، رغم كثرة استعمالها كلمة «نسيت!»، جعلني أنأى بعلاقتي مع هامة عنهما معاً، وجعلني أباعد كثيراً ما بين زياراتي لوالدتي التي كانت تنحدر بسرعة نحو الغياب في غفلة منّي.

وبسبب هذا الموقف لم أخبر أختي غوى بما جرى فيما بعد بيني وبين هامة، أقصد انفصالنا (انفصالنا!)، خوفاً من أن يكون ردّ فعلها كالآتي:

ـ حسناً فعلتَ! هذا لصالحك!

لكنّ حادثة الزيارة هذه لم تؤثّر على علاقتي بهامة، لأنّ كلاً منّا كان على درجة كافية من النضوج تسمح له بمعرفة ما يناسبه وما لا يناسبه.

ثمّ إنّ هامة جاءتني بفيلم Eyes Wide Shut للمخرج «ستاينلي كوبريك»، وتمثيل «توم كروز» (الزوج) و«نيكول كيدمان» (الزوجة)، بعد أسبوعين أو ثلاثة من الفيلم الأوّل السالف الذكر.

وقالت لي بإصرار: يجب أن ترى هذا الفيلم الآن، ولم تترك لي مجالاً للتأجيل.

وجلسنا نشاهده حتّى وصلنا إلى مشهد لافت تصرّح فيه الزوجة لزوجها بأنّها كانت مستعدّة للتخلّي عن كلّ شيء، بما في ذلك زوجها الذي تحبه، وابنتهما، ومستقبلهم جميعاً، من أجل ليلة واحدة في أحضان ذلك الضابط الذي سحرها.

علّقتُ على هذا المشهد قائلاً:

ـ «مش معقول»!

فأجابتني هامة ممازحةً على الفور:

ـ غوتَ؟ لا تريدها أن تكون حرّة، بل تريدها مكبّلةً حتى تطمئنّ!

أحسست أنّ كلامها كان قاسياً عليّ، وإن كان في معرض المزاح، وأحسست أنّه ذهب إلى أبعد بكثير ممّا رمى إليه كلامي، وأحسست بقوّة أنّه لا يتناسب مع الاتجاه الذي نذهب فيه نحن الإثنين، أي الاندماج والذوبان التام واحدنا في الآخر.

وما زلت أذكر أنّ كلامها حفر في قلبي عميقاً، وشغل بالي، لكنّني كنت أصبحت في قلب الإعصار الذي كان عليّ أن أستسلم له، حتّى ينتهي بي حيث يشاء.

فلماذا ردّت عليّ بهذا الردّ القاسي جدّاً.

كان المشهد كما يأتي:

الزوج والزوجة في سريرهما آخر المساء، بعد أن نامت ابنتهما وشاهدا التلفزيون قليلاً. الزوجة كانت قد أمضت نهاراً مملاً، لأنها عاطلة من العمل. أمضت نهارها في البيت مع ابنتها التي لم تذهب إلى المدرسة بسبب عطلة الميلاد. والزوج أمضى نهار عمل عاديّاً في عيادته.

الزوجة شابّة وجميلة للغاية، ويبدو عليها أنها محتارة في ما تفعله بجمالها وبأيّامها، وزوجها أيضاً رجل شاب وجميل. ومستواهما المادي جيّد جدّاً كما يبدو من عيادته الفخمة، ومن منزلهما، ومن طبقة الناس الذين يعاشرانهم.

إنّهما في السرير شبه عاريين، يدخّنان بصمت سيجارة «ملغومة». الزوجة متضجّرة وواقعة تحت تأثير السيجارة. قالت له بعد فترة:

ـ قُل لي شيئاً، حدّثني!

ثمّ سألته عن الفتاتين اللتين رآته معهما في السهرة الليلة الفائتة، حيث كانا مدعوين عند أحد الأصحاب، وسألته عمّا إذا كان اختلى بهما في الطابق العلوي، فنفى أن يكون اختلى بهما. ثمّ سألها بدوره عن الرجل الذي رآها ترقص معه، فأجابته بأنه صديق لصاحب الدعوة، وسألها عمّا كان يريد منها، فأجابته:

ـ جنس! في الطابق العلوي!

فقال لها حينئذ مبتسماً:

ـ إنني أفهم ذلك منه، لأنّكِ امرأة جميلة جدّاً.

فنهضتْ لمّا سمعت هذا الجواب عن الفراش، ووقفت وقالت معترضةً:

ـ انتظر قليلاً! ألأنني امرأة جميلة يريد الرجال مخاطبتي؟ هذا هو السبب الوحيد؟ الرغبة في مضاجعتني؟ هذا ما تريد قوله؟

فأجابها بأن الأشياء ليست بسيطةً بساطةَ الفرق ما بين الأبيض والأسود، وأضاف:

ـ ولكنّكِ تعلمين ما هم عليه الرجال!

أجابته:

ـ انطلاقاً من هذا، أستنتج أنّك كنت تريد مضاجعة الفتاتين اللتين كنت معهما!

فأنكر ذلك قائلاً إنّه هو شخصيّاً حالة خاصّة مختلفة عن بقيّة الرجال. ولمّا سألته عمّا يجعل منه حالة خاصّة مختلفة عن بقيّة الرجال، أجاب لأنّه مغرم بها، ولأنهما متزوجان، ولأنّه لا يمكن أن يكذب عليها أو أن يسيء إليها. فأثارت هذه الحجج غضبها، لأنّه أراد أن يقول بها، إنّه لم يضاجع هاتين الفتاتين حتّى لا يجرح شعورها، وليس لأنّه لم يرغب فيهما.

قال: أنتِ تبحثين عن الشجار، وهذا بسبب أثر السيجارة السيئ عليكِ. فأنكرت ذلك وقالت إنها تريد فقط أن تعرف في أي موقع هو، ومن أين ينطلق. ثم سألته، مستفزّةً ساخرة، بماذا يفكّر عندما يعاين حلمتي امرأة جميلة جدّاً. أجاب بأنّه طبيب وأنّ ممارسته لمهنته

احترافية خالصة تتمّ دائماً بحضور مساعدته. ثم إنّ المرأة الجميلة المفترضة تلك تكون منتظرةً بخوف ما سيكتشف فيها من مرض.

ـ وعندما تتأكّد هذه المرأة من أنّها سليمة؟

فشرح لها عند ذاك أنّ نظرة المرأة إلى هذه الأمور الجنسيّة مختلفة من الأساس عن نظرة الرجل.

هنا ثارت ثائرة الزوجة:

ـ أنتم أيّها الرجال لو تدرون فقط!

وراحت تسخر من الاعتقاد السائد القائل بأنّ المرأة، نتيجةً لملايين السنين من التطوّر البطيء، تسعى بطبعها إلى الطمأنينة والالتزام برجل واحد، بينما الرجل قادر بطبعه على أن يتنقّل من امرأة إلى أخرى، وعلى أن يبدّل ويغيّر! فاعترض الزوج على طريقتها في قول الأشياء بشكل محرّف، لكنّه وافق على أنّ في ما قالته شيئاً من الحقيقة. ثمّ اتّهمها بأنّها تريد من كلّ هذا الشجار إثارةَ غيرته، ولمّا سألته بالمناسبة، لماذا هي لا تثير غيرتَه، أجابها مُظهِراً الشكَّ ومُبطِناً اليقين: ربّما لأنكِ زوجتي، أو ربّما لأنّكِ أم ابنتي، أو ربّما لأنّني أعلم أنكِ مخلصة.

ثمّ قال لها إنّه يثق بها!

هنا، عند هذه العبارة الأخيرة، عند تصريحه بثقته بها، بلغ المشهد أوجه، وانفجرت الزوجة بالضحك، وراحت تبوح لزوجها بما يفقده هذه الثقةَ (بنفسه!) وما ينسف من الأساس هذه النظريّة السائدة التي يُراد بها للمرأة أن تقنع وتخضع. فباحت له بأنّها أثناء العطلة في الصيف الماضي، صُعقت بضابط شاب في البحريّة.

ـ أتذكر ذلك المساء، في الصيف الماضي في «كاب كود»، حين كنّا في قاعة الطعام، وكان إلى جانبنا ضابط شاب يتعشى مع ضابطين آخرين، ثمّ جاء النادل وسلّمه رسالة ترك العشاء على أثرها؟

ـ لا! أجابها الزوج.

ثمّ راحت تخبره أنّها شاهدتْ الضابط أوّلاً في الصباح في باحة الفندق، وأنّه نظر إليها نظرةً دامت لحظةً فقط، لكنّها كانت لحظة كافية لتسمّرها في مكانها. كادت بسببها أن تعجز عن الحركة! وبعد الظهر، أضافت، ذهبتْ ابنتنا إلى السينما مع رفيقتها، ومارسنا الجنس معاً، وخطّطنا للمستقبل، لكنّ ذلك الضابط الشاب رغم كلّ ذلك، لم يغب لحظةً عن بالي! وكنت أقول في نفسي، إنّه لو أراد منّي ولو لليلة واحدة فقط، لكنت عفت من أجله، من أجل ليلة واحدة معه فقط، كلّ شيء: أنت وابنتنا هيلينا والمستقبل البليد الذي ينتظرنا، وكلّ شيء!

ثمّ باحت له بأنّ ذلك حدث، رغم أنّ حبّها له ـ أي لزوجها ـ كان في أوجه!

وأخبرته أيضاً أنّها أفاقت مذعورةً في اليوم التالي، وهي لا تدري ما إذا كان سببُ هذا الذعر خوفَها من أن يكون ذلك الضابط الشاب قد ترك الفندق، أم خوفها من أن يكون ما زال موجوداً فيه. وعند الظهر تأكّدتْ من أنّه غادر الفندق، فتنفّست الصعداء، وأحسّت بالخلاص.

هذا مشهد من الفيلم الذي أرادت هامة بإصرار أن نراه معاً فوراً.

وهذا هو المشهد الذي علّقتُ عليه بقولي: «مش معقول!» وعلى هذا التعليق ردّت هامة بقولها:

ـ غوتَ؟ أنتَ لا تريدها أن تكون حرّة، بل تريدها مكبّلةً حتى تطمئنّ!

وكان ردّها قاسياً جدّاً.

وهامة عادةً لا تحبّ الشجار، ولا تحبّ الإطالة في النقاش ولا تحبّ الأخذ والردّ، ولا الاحتجاج وردّ الحجّة. هامة ليست سجاليّة المزاج.

كلام هامة في العادة يذكّرني ببعض لوحات بيكاسو: خطوط قليلة تؤدّي المشهد بكامله وبأبعاده.

فهل كانت بدأت تشعر معي بالأسر عندما جاءت بهذا الفيلم؟ وهل كانت بدأت تشعر أنني أرغب في معرفة إلى أين تذهب، ومن أين تجيء؟ وكنتُ في الحقيقة أقمع هذه الرغبة لأنّني كنت أثق بها ثقة تامّة، ولأنّني كنت أعلم أنّها تنزعج من هذا الفضول.

عليّ أن أشاهد هذا الفيلم من جديد مراراً وتكراراً، كما الفيلم السابق، وعليّ أن أتأمّل فيه، وأن أدرسه دراسة متعمّقةً ومتأنّيةً، في لغته الطبيعيّة التي ولد فيها، بعد أن أكون قد أتقنتها.

حين أفكّر الآن في جواب هامة القاسي عمّا قلته، أشعر بالضيق، وأشعر أنّني في متاهة لا خلاص لي منها أيَّ جهة ناديتُ. فماذا تريد هامة؟ هل تريدني أن أقبل بأن تكون حرّةً في أن تذهب مع رجل تُؤخَذ به ويسحرها، دون أن أعترض؟

أقول بلا مواربة: أفضّل أن أكون الرجل الذي تحلم به المرأة، لا زوجها.

أعترف، ولست نادماً على هذا الاعتراف، أنّ هذا ما يمنعني من الزواج، أو أنّه أحد الأسباب الأولى على الأقلّ. أنا لا أحتمل أن تشتهي زوجتي غيري في السرّ أو في العلن. أخاف من مشاعر زوجتي إن تزوّجتُ، ولذلك لا أتزوّج. ولذلك كنتُ سعيداً مع هامة لأنها ناضجة ومكتملة، ومجرّبة ومجرِّبة، وتعرف ما تريد وما لا تريد. وتجربتها معي ليست الأولى حتّى أخاف عليها من الشطط. والدليل على ذلك ما كانت تخبرني به بكامل رضاها، وما كنت أرى فيه تعبيراً عن ثقتها المطلقة بنفسها، وبي في الوقت نفسه.

أخبرتني مثلاً أنّها حين كانت تذهب إلى المدرسة في بيروت، كان سائق الباص يطيل النظر إليها، وكان يكبرها على الأقل بعشر سنوات، وكانت تتشاوف هي بذلك على رفيقاتها. ومرّةً طلب منها أن تكشف له عن صدرها وثدييها، وكانت وحدها في الباص، بعدما احتال لينفرد بها، فلم تتردّد. أرَتْه صدرها. كانت فخورة باهتمامه بها دون رفيقاتها، وكانت تخاف إن خالفته أن يبطل اهتمامه بها. ولم يكن سوى سائق الباص، ولم يكن جميلاً، ولم يكن يلفت نظرها بشكل خاص. وكانت هي جميلة جدّاً، وبنت أصل، وأهلها أغنياء.

وأخبرتني أيضاً، كيف أنّها حين كانت حبلى بابنتها، انشدّت إلى زميل لها في العمل أسود اللون من مالي. شدّها لونه البنّي، ورائحة جلده وعطره وتكاوينه، وكلّ شيء فيه، وأخبرتني أنّها هي التي استدرجته إلى شقّتها، وكان زوجها يشارك في مؤتمر خارج

نيويورك، وسُرّت معه سروراً هزّ كيانها، فخافت أن تؤثّر هذه المشاعر القويّة على ما في بطنها، إذ كانت حبلى بابنتها، وخافت أن تؤثّر أيضاً على علاقتها بزوجها الذي كانت تحبّه، وتحبّ أن تبني معه حياةً دائمة، فمنعت نفسها من رؤيته ثانيةً، واحتالت على الإدارة كي تنقلها إلى جناح آخر، حتّى لا تعود تلتقي به كلّ يوم. قالت لي إنّها بلغت ذروة متعتها ما إن أخذته بين ذراعيها (أو ما إن أخذها بين ذراعيه. ليتني أستطيع أن أتذكّر).

وأخبرتني أيضاً أنّها، حين كانت في نيويورك، تعرّفت بالصدفة إلى رجل، في سهرة عند أحد الأصدقاء، وكان زوجُها معها، وكان الرجل وحده، فأعطَته سرّاً رقم هاتفها الخلوي لشدّة ما انسحرت به. زجّت رقم هاتفها في جيب جاكيته من وراء ظهر زوجها، حتّى لا يبقى لدى هذا الرجل أيّ لبس في نواياها ورغبتها. وكانت في تلك الأثناء قرّرت الطلاق من زوجها قراراً لا رجوع عنه، وكانت قد أبلغته ذلك.

وفي اليوم التالي اتصل بها هذا الرجل كما كانت تأمل، والتقيا في اليوم نفسه. اتصلت بزوجها وطلبت منه أن يهتمّ بابنتهما لأنها ستتأخّر. واحتارت في ما عليها القيام به حتّى تُغري هذا الرجل وتثير رغبته فيها، لأنّها أحسّت بقوّة أنّه يمكن أن يكون الحل البديل من زوجها، وأنّه عليها لذلك ألاّ تدعه يفلت من بين يديها، فخلعت لباسها التحتاني قبل أن تخرج من مكتبها، وذهبت لتلقاه في شقّته وهي على هذه الحال.

وكان كما توقّعت. تعانقا على الباب، وقبل أن يصلا إلى السرير كانت تصرخ من اللذة. فما إن لامسته حتّى انفجرت، وذلك قبل أن يمدّ يده ليكتشف أنّها بدون لباس تحتاني. وتكرّرت لقاءاتها به

لمدّة أسابيع قليلة، لكنّ حرارة هذه اللقاءات تدنّت سريعاً، ولم تعد تجد فيها متعة المرّة الأولى، إلى أن توقّفت عن زيارته في شقّته وقد ساعدها في ذلك أنّ عشيقها كان ديبلوماسيّاً من هنغاريا الشيوعيّة أيّام الاتحاد السوفياتي، وكان يخاف على مستقبله المهني من علاقته بسيّدة غربية، خاصّة أنّ شقّته كانت تقع في حيّ يسكنه ديبلوماسيّو دول المعسكر الاشتراكي وكان مراقباً من قبل مخابرات الدول جميعاً.

لم تندم على انقطاع العلاقة بينها وبين عشيقها الديبلوماسي الهنغاري الاشتراكي، وإن كانت مدينة إليها بالكثير. وأوّل شيء تعلّمته منها هو الفصل بين القيَم اليساريّة والدول الاشتراكية. أمّا الشيء الأهمّ الذي تأكّد لها من هذه العلاقة والمتعلّق بها شخصيّاً، فهو اكتشافها أنّه ما زال بإمكانها أن تنفجر من اللذة، وأن تبلغ أورغاسمها في علاقة مع رجل، وبسرعة، وأنّ «العلّة» ليست فيها.

وشجّعتْها هذه التجربة أيضاً على ألا تعود عن قرارها بترك زوجها، وعلى الطلاق سريعاً منه، لأن العلاقة بينهما وصلت إلى حدّ من السوء لا يمكن بعده أن تستمرّ ولا يجوز.

كانت هامة تخبرني كلّ ذلك بانسياب لا يشوبه تردّد أو حذر، وبثقة تامّة بنفسها وبي. وكانت دائماً تقول لي إنني الشخص الوحيد الذي فتحت له قلبها بهذا الشكل الكلّي، أمّا الآخرون فكلّ فتحت له قلبها بمقدار، وكلّ يعرف قسماً ممّا فيه لا أكثر.

ــ أمّا أنتَ فتعرف كلّ شيء. أنا سافرة بالكامل أمام عينيك، وليس من زاوية فيّ محجوبة عنك.

«هامة» إذن صاحبة تجربة في الحب والمغامرات الحميمة، ولم تقم علاقة بي عن جهل أو غفلة أو سذاجة.

لقد اختارتني.

وهذا هو الأهمّ، وهذه هي الضمانة لنجاح علاقتنا. اختارتني عن اقتناع وهوى. حبّها لي مكتمل الشروط، لذلك أنا مستعدّ أن أضحّي بكلّ شيء حتّى أحتفظ بها، ولذلك أنا مشغول بها الآن رغم أنّ لبنان مهدّد بالزوال.

(فما الذي أستطيع عمله من أجل وطني الصغير الحبيب لبنان؟ ليس في يدي حيلة. سأحزن حتّى الموت إذا ما زال هذا الوطن الجميل. أو إذا ما دُمّر بحرب أهليّة أو بحرب تشنّها إسرائيل. بالتأكيد. ولكن على ماذا سألوم نفسي والقارّات تتصادم فيه وبواسطة أبنائه أنفسهم؟)

ما زال السؤال يقلقني: إذا كانت هامة اختارتني عن قناعة وهوى، فهل كان اختيارها هذا الفيلم دون غيره، مقدّمةً لإعادة النظر في اختيارها هذا؟ فماذا بدر منّي؟ هل رأتني أقلّب صفحات دفتر مواعيدها؟ إذ إنني قمت بذلك مرّة واحدة دون قصد. كان الدفتر أمامي في غرفة الجلوس، فتناولته بشكل تلقائي للحظات فقط. ثمّ إنّها تكتب بالإنكليزيّة، وتعرف أنّه يصعب عليّ كثيراً أن أقرأ هذه اللغة بخط اليد. أم أنّها ظنّت أنني أريد معرفة الأسماء؟

أفكّر الآن أنّ انتباهي لم يكن يذهب فعلاً إلى ما يدور في هذه الأفلام، التي كانت تجيئني بها هامة، بل كنت مأخوذاً بما كنّا نقوم

به وحسب، بهذه التجربة، بأنّ هامة في حضني وبأنّنا نشاهد معاً فيلماً سينمائيّاً، وبأنّها متحمّسة لما نحن فيه. وكنت أظنّ أن مشاهدتنا معاً لهذه الأفلام هي المقصودة بذاتها ولا شيء آخر، على أساس أنّ الهدف هو أن نقوم بأشياء معاً، وها إنّنا نقوم بأشياء معاً.

لم أكن متيقّظاً بما فيه الكفاية إلى ما كان يشغل بال هامة.

ثمّ إنني فوق ذلك، تكاسلت عن متابعة تعلّم الإنكليزيّة معها، رغم رغبتها العارمة في ذلك، ورغم اندفاعها. كان واضحاً جدّاً أنها تريدني أن أتقن الإنكليزيّة، وأن أدرك أبعاد هذه الأفلام بلغتها الأصليّة وبمفردي، دون أن تكون هي وسيطاً على الدوام.

ثم إنّ هناك شيئاً آخر لم أُوْلِهِ الانتباه اللازم، وهو أنّها كانت تُحرَج أحياناً، حين كان يخاطبني أحد بالإنكليزيّة وأتطلّع إليها مستغيثاً.

لم يفت الأوان بعد!

ثمّ بالإضافة إلى هذا السبب الضروريّ والكافي بذاته، فإنّ بي رغبةً عارمة في أن أسمع بأذنيّ هاتين ما يقوله السيّد جورج دَبل يو بوش رئيس الولايات الأميركية المتحدة، عندما يخرج إلى الناس، عبر الإذاعات والتفزيونات ووسائل الإعلام الأخرى، ويبشّر الأميركيين والعراقيين على السواء، وعبرهم العالم كلّه، بأن العالم اليوم بعد غزو العراق أصبح أكثر أماناً، بينما بعض المنظّمات تقدّم رقم المليون قتيل، ضحايا العنف في العراق منذ الغزو حتّى اليوم، أي منذ أقل من ثلاث سنوات! (ما عدا القتلى في فلسطين ولبنان وغيرهما من البلدان.)

أريد أن أعرف على أي مقطع يركّز وهو يقول مهنّئاً العالم والشعب العراقي بنجاح مبادرة من مبادراته:

ـ «كونغراتشوليشن!»

وهل يلفظ هذه المفردة بثقة، مقطعاً مقطعاً، بدون أن يخونه شيء في تعابير وجهه وحركات يديه؟

الترجمة لا تفي بالغرض الذي أسعى إليه.

ويجب أن أطّلع بنفسي أيضاً وبدون وسيط، على ما يَجْرِي في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وبين وزراء خارجيّة العالم، وكذلك في ميادين العلوم والفنون والأنواع الأخرى. بنفسي وبدون وسيط.

أعرف أنّ آفة العلم النسيان.

وأعرف أنّني منذ ولدتُ لا أتمتّع بذاكرة قويّة، وأعرف أنّ ذاكرتي تضعف بشكل يشغل البال مع تقدّمي في العمر.

وأعرف أنّ فارق العمر بيني وبين والدتي لا يتعدّى الستة عشر عاماً، وأنّ هذا قليل.

وأعرف أنّ ذاكرة والدتي تهرم بسرعة، وأنّ أختي غوى طلبت من ابنها أن ينام عندها.

ولكنّني أعرف أيضاً أنّ الإرادات العازِمة تزيح الجبال. إنّني مقتنع بذلك. فلماذا لا أحاول إذن؟ ومن قال إنّ مصيري بالضرورة

سيكون كمصير والدتي؟ ومن قال إنّ والدتي ستفقد قريباً ذاكرتها بالضرورة؟ فقد يبقى وضعها يسوء سنين عديدة، وقد يتوقّف عند حدّ.

لكنني أعترف رغم ذلك، بأنّ احتمال أن تفقد والدتي ذاكرتها يهزّ كياني!

اتصلتْ بي أختي غوى بالهاتف منذ أيّام، وهي لا تتصل بي إلاّ نادراً، لتخبرني أنّ والدتي أجابتها حين سألتها عن تاريخ ولادتها:

ـ ولدتُ البارحة!

وحين نبّهتها أختي إلى أنّها جادة في سؤالها، ابتسمت والدتي وقالت:

ـ نسيت!

لكنّني لا زلت موقناً بأنّ إرادة الإنسان قادرة على اجتراح المعجزات، وأنّه ما على الإنسان سوى أن يريد وأن يسعى حتى ينال، ولذلك قرّرتُ أن أباشر جديّاً بتعلّم الإنكليزيّة، وأن أؤجل مشاهدةَ الأفلام التي كانت تجيء بها هامة لنشاهدها معاً، وبخاصّة أفلام المرحلة الأولى من علاقتنا، إلى أن أصبح متمكّناً منها. وقد أعطيتُ لنفسي مدّةً كاملة من الوقت، أتوقّف خلالها عن كلّ عمل آخر سوى تعلّم هذه اللغة. وقد خطّطتُ للذهاب إلى أميركا والإقامة فيها شهراً أو شهرين أو ما استطعت، لكن ليس عند أقرباء أو أصدقاء لبنانيين وهم كثيرون هناك، بل عند عائلة أميركيّة لا علاقة لها باللغة العربيّة، بحيث أعيش الإنكليزيّة وأتنفّس بها، وآكل

وأشرب وأنام وأمشي وأجلس، تماماً كما يفعل في يومهم هؤلاء الممثلون، في الأفلام التي تحبّها هامة بشكل خاص. وقد ساعدتني معلّمتي السويديّة على رسم هذه الخطّة ووعدتني بالمساعدة على تنفيذها.

لقد وفّقني الله بهذه المعلّمة، لأنها تجيد الإنكليزيّة تماماً، وتجيد تعليمها، وهي مختصّة بتعليمها إلى غير أهلها، وقد زارت الولايات المتّحدّة عدّة مرّات، أجرت أثناءها دورات في تعليم هذه اللغة للأجانب، وأقامت فيها مرّة سنة كاملة عملت فيها مدرّسة في إحدى الجامعات. ثم إنّ السويد، كما أخبرتني، بلد قريب جدّاً من الناحية العاطفية والسلوكية من الولايات المتحدة الأميركيّة، بحيث إنّ البعض يلقّبها أحياناً بأميركا الصغرى، واللغة الإنكليزيّة منتشرة جدّاً فيها، وكثيرون من السويديين يجيدونها. ومعلّمتي فوق ذلك لها أخت اختصاصيّة بالأدب المقارَن، وتقيم في الولايات المتحدّة، ومتزوّجة من أستاذ جامعي أميركي مختصّ بالأدب الأميركي.

إنّ الله وفّقني لا شك بهذه المعلّمة التي اتصلتْ فوراً بأختها وطلبت منها استضافتي، وقد رحّبت أختها وكذلك زوجها الأميركي مسبقاً بزيارتي المحتملة، فقلت لمعلّمتي عند ذاك إنني مستعدّ لدفع تكاليف الإقامة، فقالت: لا! إنهما يرحّبان بك وحسب، وهما يستطيعان استضافتك بلا مشكلة، لأن منزلهما كبير جدّاً وليس لديهما أولاد، لكن انتبه إن كنت لا تحبّ الحيوانات ــ قالت ممازحةً ــ فعندهم هررة كثيرة، ففكّرتُ في نفسي أن أعلّق بالقول: أنا ليس عندي هررة ولا أولاد!

لم تفتح عليّ الدنيا في حياتي كلها كما فتحت عليّ منذ تعرّفتُ إلى هامة، فكلّ ما أقوم به ويتّصِل بها هيِّنٌ عليّ كالحليب. لقد

وفّقت بمعلّمتي لا من حيث أهليّتها العلميّة وحسب، بل من حيث سلوكها وأخلاقها أيضاً. فهي تأتي في الموعد تماماً، وتأتي وقد حضّرتْ درسها بأدقّ تفاصيله. ثمّ وهذا هو الأهم، قبلتْ بأن يكون مكان التدريس عندي في شقّتي، وقد قبلتْ بذلك بدون تردّد. وعمرها تسع وعشرون سنة، وهي فوق ذلك جميلة كالقمر (عندما قلت لها إننا نشبّه الوجه الجميل بالقمر، استدارت عيناها من الدهشة، لأنّ القمر عندهم لونه شاحب، ومَنْ لونه كالقمر هو مريض!

غريب!

حوار الثقافات بحاجة إلى صبر أيّوب).

ثم إنّها تسلك معي على ما يجب أن يكون السلوك، يعني بشكل مثالي! تدخل بعد أن أفتح لها الباب، بدون أن تسلّم باليد، تحيي بتهذيب شديد وباقتضاب، وتبدأ بتصحيح أخطائي اللغويّة منذ هذه اللحظة، أي منذ لحظة ردّ التحيّة والتأهيل بها:

ـ hi! تقول لي عندما أفتح الباب وأراها واقفةً أمامه منتظرةً.

ـ come أقول لها، عندما أراها لا تتقدّم للدخول، فتجيبني مصحّحةً وهي تتقدّم:

ـ come in

ثم إنّها تأتي دائما بلباس محتشم ومتحفّظ، أقصد لباس عمل لا لباس إغراء.

فلو أنّ هذه السيّدة لم تقبل بأن تعطيني دروساً في بيتي فأين كنت ذهبت؟

لا يستطيع رجل في سنّي أن يذهب إلى مدرسة تكون فيها أعمار التلاميذ متدنية. لا يمكنني أن أتعلّم مع صبيان أو صبايا في عمر الرابعة أو السادسة عشرة. أتحوّل حينئذ إلى أضحوكة. الحلّ الأمثل هو ما توفّقتُ في التوصّل إليه، أي أن تأتي المعلّمة إلى بيتي، فأتحاشى أن يسمعني صبيّ أقرأ ليتمتّع بعثراتي وأخطائي، وأتحاشى أن يطّلع أحد على الصعوبات التي تعترضني، وأوّلاها ضعف السمع والنسيان.

لم يعد سمعي حادّاً كما كان في أيّام الشباب، فأنا اليوم بحاجة إلى تركيز شديد حتّى أستطيع تمييز كلّ كلمة في الإنكليزيّة، أو في أي لغة أجنبية أخرى.

مع معلمة خاصّة يضحك عليّ شخص واحد، هي وحدها، أمّا في قاعة تضمّ عشرة أو عشرين طالباً وطالبةً فإنّ الأمر يصبح شديد الإحراج.

أوّل ما قمت به، لكن بعد انقضاء الدرس الأوّل لسوء حظّي، هو أنني ذهبت عند الحلاّق، لا لأحلق شعر رأسي أو لحيتي بل «لأنظّف» أذنيّ. «لأنظّفهما» من الشعر النابت فيهما كأكمة صغيرة، لأنني انتبهتُ أثناء الدرس الأوّل، أنّني كنت مضطراً إلى أن أضع يديّ الاثنتين خلف أذنيّ، مكوّراً إيّاهما وموسّعاً مساحتهما، حتّى أستطيع أن أسمع جيّداً. أظنّ أن معلّمتي انتبهت إلى هاتين البقعتين من الشعر، وانتبهتْ إلى كثافة الشعر فيهما، (ألا ينبت الشعر في آذان المسنّين في السويد؟) فأحرجني هذا الموقف، لذلك قرّرت «تنظيفهما»، وذهبتُ عند الحلاّق لهذا الغرض.

(ما الحكمة من تكاثر الشعر هناك مع العمر؟)

لم أكن منتبهاً قبل أن أتعرّف إلى هامة إلى أن الشعر ينبت بهذه الكثافة في تجويفة الأذن، بل لم أكن دارياً بوجود هذه الظاهرة. هامة هي التي نبّهتني إليها، وكانت تقول لي من وقت لآخر: «صار لا زم نظّفلك ياهن»! كانت تستعمل هذا الفعل بالذات (نظّف) للتعبير عن هذه العمليّة، وقد فاجأني أوّلَ مرّة استعمالها هذا الفعل في هذه الوجهة، لأنّ الشعر في الأذنين ليس وسخاً بالنسبة إلي حتّى تُعتَبرَ إزالتُه «تنظيفاً»، ثمّ اعتدتُ سريعاً على هذا الاستعمال، حتّى صرت أستعمله أنا أيضاً. لكنّني كنت دائماً أنتبه إلى أنني أستعمله.

وكانت «تنظّفهما» لي بنفسها، كلّما طال فيهما الشعر وتكاثف.

يا الله هذه الذكريات الجميلة!

يكفيكِ يا هامة أنّكِ زوّدتِني بهذه الذكريات الجميلة، حتّى أبقى شاكراً لكِ إلى الأبد.

كانت تجلس القرفصاء على الكنبة الطويلة، في صالون بيتي أو في صالون بيتها، وكانت تضع رأسي في حرجها، وتبدأ بنتف شعر أذنيّ بملقط الشعر، بتأنٍ حتّى لا أتألّم، ثمّ كانت كلّما نتفت بعضَها نفضتْها بفرشاة صغيرة مناسبة، ثم كانت تمسح الأذنين بقطعة من القطن مبللة بالسبيرتو المطهّر. ثم كانت تقبّلني عليهما، وتداعبهما برأس لسانها لتستمتع بنعومتهما.

والله أنا على استعداد لأتعلّم لغات العالم أجمع، لا اللغة الإنكليزيّة

وحدها، من أجل لحظات كهذه!

وكانت في هذه الأثناء تعلّمني بعض المفردات الإنكليزيّة. كانت تسكبها في أذنيّ سكباً وهي تزيل عائق الشعر لتنساب الكلمات انسياباً. كنتُ أسألها: ماذا تفعلين الآن بالإنكليزية؟ فتجيبني:

– I am cleaning your ears!

أو:

– I am plucking out the hair from your ears!

فأسألها أن تشرح لي معنى المفردات، فتروح تشقى للعثور على مرادفاتها بالعربيّة، لأنها لم تكن تُجيد العربيّة ولا الترجمة إليها، وهي لذلك أرادت دراسة اللغة والأدب العربيّين في الجامعة الأميركيّة، لكنها في الأخير استصعبت الأمر وقرّرتْ، بعد قليل من التردد والشعور بالذنب، التوقفَ عن الدراسة، محتجّةً بأنّها ليست بحاجة إلى أستاذ، لأنّها بين يدَي كاتب. وقد كتبت لي يوم قرّرتْ التوقّف عن الدراسة، رسالةً بالهاتف النقّال، تقول فيها إنّها تفضّل أن تُمضي معي الوقتَ الذي تمضيه في الجامعة، فتحقّق هدفين في وقت واحد: المتعة والتعلّم. هذه رسالة مؤرّخة وموجودة في الملفّ الذي أعددتُه للدعوى، لكنّ زمن الغضب والرغبة في الانتقام قد ولّى، ولم يبقَ سوى الذكريات الجميلة والمؤلمة.

هذه الذكريات!

والأهمّ الأهمّ في كلّ ذلك لا يكمن في ما كانت تقوم به هامة من إزالة شعر أذنيّ، أقصد أنّ قيمة هذا العمل لم تكن في العمل نفسه،

بل في أنّ هامة كانت سعيدةً وهي تقوم به.

كانت هامة سعيدة وهي «تنظِّف» أذنَيّ من الشعر!

هكذا تتحوّل اللحظة إلى مطلق، أي أنّ اللحظة التي أنت فيها تصبح هي الزمان بضفّتيه، الأزل والأبد.

ثمّ كنّا ننتقل بعد عمليّة «التنظيف» إلى الفراش الكبير، حيث كنت أندبّ على «ما بينها»، أردّ لها الجميل طويلاً، منصرفاً بلا كلل أو ملل، قاصداً أن تبلغ متعتها لتكتمل سعادتي.

وصرتُ إذا ما فشلتُ أحزن، ولا يسلّيني عن حزني سوى الوعد بالنجاح في المرّة المقبلة، لأنّ الفشل المتكرّر سيؤدّي مع الوقت إلى خسران هامة، بما أنّه سيؤدّي إلى خلق شعور لديها أو اقتناع مفاده أنّ علاقتنا هي بين شخصين لا يكمّل أحدهما الآخر. وهذا الشعور أو هذا الاقتناع يُبنى عليه مقتضاه.

يجب ألاّ أفشل إطلاقاً.

وعليّ، إن كنت لا أستطيع النجاح دائماً، أن أقلّل إلى أقصى حدّ من المرّات التي أفشل فيها. يجب أن أركّز انتباهي وأنا منصرف إلى «ما بينها» إلى تموّجات جسدها، وإلى الرسائل والإشارات التي تصدر عنه، لكي أعالج كلّ لحظة بما يناسبها من أدوات وحِيَل.

وكنت مرّات أؤلمها. لكنّ مرّةً آلمتُها فوق ما تحتمل بكثير، فصرختْ معتذرةً (لا معترضةً!) وفترت رغبتُها على الفور، فأحسستُ بالذنب وانزويتُ في نفسي كهرّة ضُربت بقوّة وبلا سبب. كنت في أعماقي، أشعر دائماً معها بأنّني بريء، مهما أسأتُ إليها، لشدّة ما

كنتُ أحبّها. لكنّ هامة كانت دائماً مشابهةً لذاتها، فتؤانسني سريعاً وتطيّب خاطري.

أستطيع أن أقول الآن إنّ هامة كانت تشعر بالإشفاق عليّ حين كانت تراني أُجهِد نفسي إلى هذا الحدّ، وحين كانت تراني أبلغ مرحلة الإعياء والشلل الذي ينتج منه (والريق بلا ضابط!) بحيث إنّها كانت تقول لي من وقت لآخر: لا ضرورة لهذا التعب! أو: لا تتعِبَ نفسك إلى هذا الحدّ! أو: «خلص يكفي!» ثمّ كانت تميل عنّي وتجمع رجليها، وتفتح الراديو على برنامج أو أغنية، أو تفتح التلفزيون لتقع على قناة إخباريّة أجنبيّة أو عربية مثل «الجزيرة» أو «العربيّة»، وتروح تقرأ شريط الأخبار أسفل الشاشة حيث لا خبر جميلاً: انفجار في بغداد يقتل ستّين شخصاً ويجرح مئة، وانفجار آخر يقتل مئةً ويجرح العشرات، والجيش الإسرائيلي يغتال ناشطين فلسطينيين في غزّة، واغتيال الوزير... في بيروت.

إنّ عزيمة الثور الفتيّ تتلاشى عند قراءة أخبار من هذا النوع. وقد قالت لي مرّة وهي تقرأ شريط الأخبار: لم أسمع صوت هذا الانفجار أمس، مع أنّه كان قريباً من مكتبي، وقد أوقع اثني عشر قتيلاً! وقالت مرّةً أخرى: هذا الانفجار وقع على الطريق التي أسلكها وأنا ذاهبة عند المزيّن.

في الدرس الثاني، بعدما «نظّفتُ» أذنَيّ عند الحلاّق، كنتُ شديد الانتباه إلى ردّ فعل معلّمتي، وإلى ما إذا كانت ستلاحظ ما أقدمتُ عليه. لم ألحَظ شيئاً عليها.

معلّمتي شديدة الخفر والتكتّم، وتلزم حدّها فلا تتعدّاه، ولا تطرح

عليّ سؤالاً خارج نطاق الدرس، ولا تُبدي فضولاً، ولا تسأل عن شيء يتناول أمراً شخصيّاً، ولا تترك مجالاً لالتباس، ولا تنطق بكلمة خارج الموضوع، ولا تبرز شيئاً من جمالها بشكل غير اعتياديّ. إنها من هذه الناحية مثاليّة بالنسبة إليّ.

وفي المقابل كنت أنا أيضاً لازماً حدّي، فلا أسعى إلى إثارة أيّ نقاش شخصي يتعلّق بي أو يتعلّق بها. لكنّ ما حدث هو أنّنا كنّا مرّة نقوم بتمرين على أداة الاستفهام «لماذا»، وكانت تقرأ لي السؤال وكنت أجيب عنه، إلى أن قرأتْ لي سؤالاً يقول: لماذا تتعلّم الإنكليزيّة؟

لماذا أتعلم الأنكليزيّة يا معلّمتي السويدية؟ ردّدتُ في نفسي بمرارة، وقد بدا عليّ الاضطراب، وقد لاحظتْ ذلك فأحسّتْ بالحرَج لمّا رأتني كذلك وخجلتُ، وبدا عليها أنّها محتارة في ما تفعله، ثمّ انتقلتْ إلى سؤال آخر.

لا يهمّ معلّمتي السويديّة سوى ما يعنيها، وما يعنيها هو تنفيذ الاتفاق الذي بيننا، والذي ينصّ على أن تعلّمني ثلاثة أيّام في الأسبوع، وكلّ يوم ساعة ونصف الساعة، وأن تقبض آخر الشهر ما اتفقنا عليه مقابل ذلك، لكنّ المال لم يكن همّها الوحيد بالتأكيد، بمعنى أنّ العازة لم تكن دافعها إلى العمل، فزوجها يعمل مهندساً في شركة اتصالات، وأجره كبير، لكنّها لا تريد أن تكون عالةً عليه.

لم تخبرني معلّمتي بشيء مما أذكره الآن عنها، بل حزرتُه رويداً رويداً ممّا تجمّع لديّ من معلومات متفرّقة. وإذا كنتُ أذكر ما

حزرت فلسبب: إذا كانت هذه السويدية رضيت بأن تترك عملها هناك في السويد، وبأن ترافق زوجها إلى لبنان، رغم الظروف الأمنيّة الخطرة فيه، ورغم الحروب المعلنة والمضمرة المستعرة فيه وفي دول الجوار، ورغم الخطر الماثل في احتمال حرب إسرائيليّة على لبنان، فإنّها ترفض أن تبقى هنا بلا عمل، وترفض ألاّ تأكل خبزها بعرق جبينها، وتأبى على زوجها أن يعيلها لتبقى منتوفة الجناح ومسلوبة الحريّة. إنّ احترامها لنفسها يقضي عليها بأن تعيلَ نفسها ما استطاعت، رغم كلّ ما ضحّت به لتكون إلى جانب زوجها.

أقول ذلك لأنني قد عانيت الأمرّين من هذه المسألة أنا أيضاً، إذ إنّ هامة تقبض شهريّاً من مؤسستها، ما يقارب العشرة آلاف دولار أميركي! وهو مبلغ كبير جدّاً في بيروت، قياساً على مستوى أجور الناس. أمّا أنا فمجموع ما أكسبه من مقالاتي في الجرائد والمجلاّت، وبعض الترجمات عن الفرنسيّة، وبعض أعمال التحرير في دور النشر وغيرها، وما يبلغني من إيجار الشقّة التي ورثتها عن والدي، لا يبلغ ألفاً وخمس مئة دولار، لكنّ الشقّة التي أسكن فيها ملك لي، لحسن حظّي. فالفارق إذن بين ما أكسبه أنا وما تكسبه هي كبير جدّاً. وهذا ما يصعب عليّ أن أتعايش معه. لا يمكن أن تصرف عليك امرأة وأن تبقى على احترامها لك، فمنذ عشرين ألف سنة وهذا الواقع يدوم: الرجل يصرف على المرأة ويعيلها.

ثمّ إنّك يا حبيبو! يا حبيبي! يا حياتي! يا صَبِي! يا ضناي! أنت تفوقها سنّاً بعشرين سنة، أي بحياة كاملة. فمن أنت إذن حتّى يكون لك هذا القدر من الثقة والاعتداد بالنفس؟ ومن أنت أيّها الحبيب العظيم حتّى يكون لك هذا المستوى الرفيع من العيش، على حساب سيّدة تدرك حدود الأشياء بدقّة لامتناهية، وقد نشأتْ في

لندن وعملتُ في نيويورك، أي في مدينتين لا ترضى المرأة فيهما أن تجلي صحناً واحداً أكثر ممّا يجليه زوجها أو شريكها. بل لا ترضى بأن تجلي صحناً أكبر مساحةً من الصحن الذي يجليه زوجها. ومشكلة هامة أنّها تحبّ الخروج كثيراً إلى المطاعم والمراقص، وتحبّ السيّارات الفخمة، والهواتف النقّالة الحديثة الصنع، وتحبّ الحياة الحلوة، ولا تحبّ المكوث في البيت طويلاً بلا سبب داع. وهذه الطريقة في العيش لها ثمن لا يستطيع دفعه إلاّ من كان في استطاعته!

لم تكن هامة تحبّ شيئاً من النشاطات التي يحبّها عادةً الكثير من الموظفين في المؤسسات الدولية، كاليوغا مثلاً، ورياضات التأمّل وما شابه. كانت تحبّ أن تستهلك. كانت تحبّ أن تحصل على مشاعر قويّة، ومذاقات حادّة، وملابس فخمة وجميلة، وأدوات متطوّرة وجديدة، مقابل المال. هذا ما كانت عليه.

وكانت تحبّ الذهاب إلى البحر لتسبح وتتشمّس، وهذا بالذات ما كنت عاجزاً عن القيام به. لم أكنْ أريد أن أعرض عُريي للناس عندما أكون في رفقتها.

قبل بدء علاقتي بها، كنت أذهب إلى البحر أحياناً. أمّا برفقتها فلا! وكانت تتعجّب لامتناعي عن مرافقتها، وكنتُ دائماً أجد حجّة مقنعة، حتى أنّني ادّعيت مرّة أن طبيب الجلد الذي أزوره دوريّاً منذ سنوات، نصحني بألاّ أذهب إلى البحر إلاّ بعد غياب الشمس، لأنّ ذلك قد يؤثّر سلباً على الشامة التي على جسمي. وقد ساعدني على إقناعها بهذه الحجّة أنّ «فوبيا» الأثر السيئ لثقب الأوزون كانت متفشّيةً جدّاً، وهذه «الفوبيات» والمخاوف المتعلقة بالصحّة، أكثر ما يتأثّر بها أمثال هؤلاء الموظّفين الدوليّين، الذين يكونون على

اتصال يومي بما يقال ويذاع ويكتب في أميركا. أميركا العافية.

لم يخطر في بالي يوماً، أن يكون لمجموع هذه المشاعر المختلفة المتناقضة، التي تسمّى الحبّ، هذا الأثرَ العظيم عليّ، بحيث إنّها دفعتني إلى تعلّم لغة وأنا في الستّين.

أقول «تعلّم لغة»! والحقيقة هي أنّه أمر أقرب إلى التعذيب أحياناً منه إلى التعلّم، وبخاصّة حين أكون في وضع نفسيّ هابط. فكيف أستطيع في هذه السنّ أن أحفظ كلّ هذا الكمّ من المسارب، والانعطافات. إذا قلت كذا يعني كذا، وإذا قلت الشيء نفسه مع اختلاف حرف، فيعني شيئاً آخر. إذا قلت Cheat on me فإنّك تعني «خانني» وإذا قلت Cheat me فإنّك تعني «غشّني». وإذا أخطأت ينفجر الناس بالضحك عليك.

لي صديق مثليّ دعوتُه إلى عشاء في مطعم مع بعض الأصدقاء، لكنّه اعتذر عن عدم المجيء في آخر لحظة، فأعلمت المدعوّين باعتذاره، وأضفتُ بالإنكليزيّة من باب النكتة: He cheated on me وقصدت من ذلك أنّه أخلّ بوعده وغشّني، فانفجروا جميعاً بالضحك! وقال أحدهم: مع من يخونك؟ وقال آخر: طلّقه! (الناس بلا رحمة!)

ليس من السهل تجديد الذاكرة، وليس من الممكن التصرّف على أساس أنّ ستّين عاماً من تراكم الأيّام لم تترك فيها أثراً، أضف إلى ذلك كلُّ هذه الأمور التي أرهقت ذاكرتي بشكل خاص، من أهوال حروب لبنان إلى إدمان التدخين لسنوات طويلة، دون أن أنسى الحبوب المنوّمة أو المهدّئة للأعصاب.

عندما كنتُ شاباً، كانت اللغة الأجنبيّة بالنسبة إليّ وإلى أترابي من الوسط ذاته، تفوح بالجنس، وكانت مهيّئةً للجماع. وباللغة الأجنبيّة أقصد بالطبع واحدةً من هذه اللغات الغربيّة التي كنّا نتعلّمها، وبخاصّة الفرنسيّة والإنكليزيّة.

كانت الواحدة من هذه اللغات بابَنا إلى هذا العالم الواسع من الفرح والمتعة. من الفتيات. كانت وعداً. كان كلّ تعبير نتعلّمه يزيد من حظوظنا في هذه المتع والأفراح، لأنّه يزيد من قدرتنا على الإقناع والإغراء.

فحين تتعلّم اللغة يزول كلّ عائق جدّي يحول بينك وبين النجاح، ويصحّ عليك حينئذٍ هذا الشعار: لم يعد لديك عذر فتقدّم! والفتاة الغربيّة بالنسبة إلينا كانت (وما تزال!) كاملة الجهوزيّة، لا يمنعُها من الاشتباك معك في علاقة جنسيّة أو عاطفيّة مانع من أهلٍ أو تقليد أو دين أو ما إلى ذلك. فإذا اقتنعتْ بك، خَلَصْ، يمشي الحال. وذلك بخلاف الفتاة العربيّة الخاضعة لسجن التقاليد، وسيطرة الأهل، وأسر العفّة، وعائق العذريّة. أَقْنِع الفتاةَ الأجنبيّة وهي لك! لا عِدْنِي بالزواج، ولا زُرِ الأهلَ أوّلاً، ولا ماذا سيقول الناس عنّي، ولا رآني أخي، أو رآني جار وسيخبر الأهل عنّي، ولا سيمنعني أهلي من الخروج لأنهم ظنّوا بأنني... لا شيء من كلّ هذا. اللغة الأجنبيّة تفتح لك إمكان الدخول إلى عالم حرّ من كلّ هذه القيود والعوائق، عالم مُضاء تتكاثف فيه اللذة.

كنت وأنا أتعلّم الفرنسيّة كأنّني زائر تنشقّ لي الجماهير لأسلك دربي... المستقبل لي والساحات لي والنساء.

ثمّ زرت باريس مدّة أسبوعين، ولشدّة ما سررتُ فيها أثناءهما

عزمت على أن أعود إليها، وأن أقيم فيها ما استطعت. ولم تكن باريس في أواخر الستينيّات مثلما هي اليوم، بل كانت مدينة بعيدةً وجميلة، وكانت آمنة وجميلة، وكانت ملهِمة.

لكن هذا لم يعد ممكناً الآن وأنا في سنّ الستّين! كنت في صغري ألتهم اللغة التهاماً، وألتهم العبارات والمفردات، وألتهم الفروق الدقيقة في المعاني، والإشارات إلى الماضي أو إلى الحاضر. لكنني اليوم أنوء بضعف ذاكرتي. فمنذ مدّة كنت في محاضرة عنوانها «الخيانة الزوجية وسيكولوجيا الرجل العربيّ المقهور» ألقتها سيّدة من معارفي، وقالت فيها باختصار، إنّ المسبّب الأوّل للخيانة الزوجية في الوطن العربي، هو شعور الرجل العربي بالهزيمة. إنّ الاستعمار الذي يقهر الرجل العربي يدفعه إلى الانتقام بالبحث عن امرأة «يفترسها رمزيّاً» انتصاراً لكرامته. وهكذا تمسي الزوجةُ هي الضحيّة ثمّ العائلة ثم الوطن. وقد أُعجب بها الكثير من الحضور، وصفّقوا لها.

الغريب في الأمر أنّ هذه المحاضِرة ركّزت على خيانة الرجل لزوجته ولم تأت على ذكر خيانة المرأة لزوجها.

لقد كذبت عليّ هذه السيّدة حين ادّعت أمامي أنها ستقول شيئاً جديداً لم تقله من قبل، لأنها قالت الشيء ذاته على إحدى المحطّات التلفزيونيّة، حيث كانت ضيفةً في أحد البرامج. وقد اتصلت بي يومها أيضاً وطلبت منّي أن أشاهد البرنامج، وقد شاهدته، وقد قالت الشيء نفسه.

والمهمّ في الحقيقة من هذا الخبر أنني وأنا عائد من هذه المحاضرة بالسرفيس إلى بيتي، وبينما كنت غارقاً في أفكاري أستعيد ما ذكرته المحاضِرة عن أسباب الخيانة الزوجية، انتبهتُ فجأةً أنّ السائق

انعطف في طريق مختلف عن الطريق المعتاد، الذي يجب أن يسلكه لبلوغ الحيّ الذي يقع فيه بيتي، قرب شارع الحمرا. لا أحد يُخطئ بالطريق إلى شارع الحمرا. استغربتُ الأمر كثيراً، ومع ذلك لم أسأله عن سبب سلوكه هذا الطريق، لكنّني توقّفت عن التفكير في المحاضرة، وصرت منتبهاً إلى السائق وإلى الطريق التي يتّبعها. كان في السيّارة سيّدة تجلس على الكرسيّ الأمامي إلى جانب السائق. لم يبدُ عليها أنها استغربت شيئاً. وفي قمّة تأهّبي هذا وانتباهي تناولتُ هذه السيّدة ألف ليرة ودفعتْها للسائق، فاطمأننتُ إذ قدّرت فوراً أنّ السائق يسلك هذه الطريق من أجل هذه السيّدة. لكنني انتبهتُ في الوقت نفسه، إلى أنّ السائق الذي تناول ورقة الألف ليرة من السيدة، ظلّ ممسكاً بها كأنّه لا يعرف أين يضعها. غريب! ثم انعطف السائق في اتجاه معاكس تماماً لكلّ توقّع، فقرّرت عندذاك أن أتدخّل فسألته عن سبب اتخاذه هذه الطريق، واعترضتُ على ما يفعله، إذ لا يحقّ له إطلاقاً أن تكون وجهته معاكسة للحمرا، وأن يسمح لي بالصعود، لا يحقّ له أن يكذب عليّ وأن «ينقعني» معه، كأنّ وقتي لا قيمة له، لكنني وأنا أتكلّم بصوت يرتفع كلّما تابعتُ الكلام، فاجأني وفاجأ السيّدة بسؤال وجّهه إلينا نحن الإثنين: إلى أين أنتما ذاهبان؟ فأجبناه معاً بدهشة واستغراب: إلى الحمرا. وتابع طريقه في غمرة استغرابي واستغراب السيّدة التي صارت تتلفّت إليّ مستنجدةً بي.

حوادث العنف المجّاني، والاعتداء على الناس، والجرائم في الشوارع، أمور نادرة الحدوث في بيروت، لكنّ هناك أسباباً كثيرة أخرى في هذه الأيّام، تدعو إلى الحذر، مثل اشتباكات مفاجئة بين شباب من السنّة وآخرين من الشيعة، لأنّ الحيّ الذي اتجهنا نحوه هو حيّ مختلط، أو مثل انفجار سيّارة مفخخة بهدف اغتيال شخصية

سياسيّة، أو بهدف قتل أُناس من المذهب الآخر! ثم إنّني، وفي المبدأ، أختصر وجودي في الخارج إلى أقصى حدّ مع بَدء موجة التفجيرات منذ ما يقرب من السنتين، وخصوصاً في المناطق المسيحيّة التي استُهدِفت في الفترة الأخيرة أكثر من غيرها، لأنّ كلّ انفجار قد يحصد العشرات ما بين قتلى وجرحى! وقد يؤدّي إلى ردود أفعال يذهب ضحاياها عادةً الغافلون أو الأبرياء من الطوائف الأخرى (يا سلام..! حين أتصوّر نفسي فقدتُ نفسي، أو فقدتُ عيناً أو اثنتين، أو رِجلاً أو رِجلين..!)

مددت يدي عفواً ووضعتها على كتف السيّدة المشغولة البال، المتلفّتة دوماً إليّ والمستغيثة بي، وشددت عليها مطَمْئِناً، فرفعتْ يدها ووضعتْها على يدي في حركة شاكرة. كانت هذه السيّدة لا شكّ لم تبلغ الأربعين من عمرها، وكان يبدو عليها الجدّيّة والنضوج والخفر والدفء في آن. ثمّ قال السائق بعد أمتار: أخبراني رجاءً أين أنا! ثمّ أضاف: «نعمْ انسى!» بدأتُ منذ مدّة أنسى فجأة، فلا أعود أعرف أين أنا! ردّاني رجاءً إلى بيتي. فقلت له: أين بيتك؟ قال: بيتي؟ وتوقّف فجأةً عن الكلام، ثم ردّد بعد برهة ما قاله سابقاً: قُولا لي رجاءً أين أنا! فقلتُ له: نحن الآن عند تقاطع شارعي «مار الياس» و«الاستقلال»، ومتّجهون إلى البسطة ثم السوديكو. هنا انفجرت سيّارة منذ بضعة أسابيع، وكان المستهدف بها أحد الوزراء السابقين، لكنّه نجا منها بأعجوبة وقُتل مرافقوه وعدد من المارّة. حدث ذلك السنة الماضية في مثل هذه الأيّام.

ـ هل تذكّرت؟

ـ بلى! بلى! بلى! راح يردّد. عرفتُ الآن أين أنا، أين نحن! تريدان الذهاب إلى الحمرا! قال بنشاط بادٍ، كأنّ روحه عادت إليه،

واستدار ليصير في عكس الاتجاه الذي كان فيه، وانطلق بسرور باد نحو الحمرا. وعند فندق «البريستول» في الطريق إلى الحمرا، نزلت السيدة من السيّارة، دون أن تنظر إليّ لتشكرني على الأقلّ، كما توقّعت. وبعد قليل عند مطاعم «بربر»، قبيل شارع الحمرا بأمتار، سألني فجأة من جديد:

ـ هل نحن في الحمرا؟

ثمّ قال لي مستغيثاً:

ـ ردّني إلى بيتي!

ولكن أين بيته هذا لأردّه إليه.

ثمّ توقّف في وسط الطريق وهو يرجوني أن أردّه إلى بيته، وبدأت السيّارات وراءنا تزمّر بعصبيّة، إلى أن اقترب شرطيّ من السيّارة، وانحنى على السائق، وأمره بغضب أن يوقف سيّارته إلى يمين الطريق، وأن يعطيه أوراقها وإجازة القيادة، لكنّ السائق كان محتاراً في ما يفعله، وكان ذلك بادياً عليه، ولم يستطع الشرطي أن يدرك سريعاً كلّ ما كان يجري، إلى أن تدخّلتُ وشرحتُ له الوضع، فطلب منه عندذاك أن يترجّل حتى يوقف السيارةَ بنفسه إلى اليمين، فانتهزتُ الفرصة هنا، وترجّلتُ وانطلقتُ مبتعداً عن المكان.

فكّرت فيما بعد، ما إذا كان الشرطيّ سأل عنّي، أو تساءل عن سبب اختفائي، وفكّرت كثيراً في ما كان عليّ أن أفعل أكثر ممّا فعلت. وتساءلتُ عن مصير الإنسان المسنّ وعمّا ينتظره. وتساءلتُ عمّا ينتظرني وأنا عند عتبة العقد السابع من العمر. وتساءلتُ عمّا يمكن أن يحدث لي، وأنا أسكن وحدي، ولا أحد يستطيع نجدتي، أو حتّى تنبيهي إلى خطأ أو نسيان أو ما شابه. فقد لاحظت منذ

مدّة أنّ حالات النسيان تتكاثر معي، وإن ببطء، وحين أتذكّرها أصاب بالهلع: عدتُ مرّة إلى البيت، بعد غياب نصف نهار، لأجد نفسي قد نسيت المفتاح في الباب من الجهة الخارجية، والباب مفتوح نصف فتحة! لكن لحسن حظّي لم أفقد من البيت شيئاً، ولم ينتبه إلى ذلك أحد، ولم يدخل البيت سارق ولا غريب، لأنّ الكهرباء لم تنقطع في ذلك النهار، ولم يُضطرّ أحد من ساكني المبنى أو من زوّارهم إلى استعمال الدرج.

أخطر من ذلك: فتحتُ الغاز لأشعله، فرنّ الهاتف، فذهبت لأردّ دون أن أشعل الغاز، ثم خرجت سريعاً من البيت، ناسياً أنّني قد فتحت الغاز دون أن أشعله، وعُدتُ في آخر الليل، وكانت رائحة الغاز منتشرة في كلّ أرجاء البيت. أعرف لحسن حظّي أنه في مثل هذه الحالة، يجب ألاّ أشعِل شيئاً وألا أشعل النور بخاصّة، وإلاّ فقد ينفجر المكان!

وصرت أنسى الأسماء. وأنا في الحقيقة أنسى أسماء الناس من زمان. لكنني في هذه الفترة الأخيرة، أقصد منذ عدّة سنوات، بدأتُ أنسى أكثر بكثير، وبخاصّة حين أكون تعباً. أو حين أقف طويلاً، منتظراً أو متحدّثاً مع أحد. لا أحبّ الذهاب إلى المعارض والمتاحف لهذا السبب. يفرغ رأسي من الدم بسبب الوقوف والانتظار البطيء، فلا أعود أذكر اسماً ولا شيئاً.

أَعنّي إذن على تعلّم الإنكليزية يا ملك الأرض والسماء!

أضرع إلى الله وأنا مقتنع بأنّه ما من سبب يدعوه للاستجابة لطلبي، وما من سبب يدعوه لأن يقوم بمعجزة من أجل أن يفهم شخص مثلي سرّ هجر امرأة له.

عندما كنت أكوّر أذنيّ الإثنتَين وأوسّع مساحتيهما بيديّ، ثمّ أغمض في الوقت نفسه عينيّ لأسمع جيّداً ما تقرؤه عليّ معلّمتي، كنت أحاول أن أرى نفسي بعينيها، فإخالني مشهداً مضحكاً: ستينيّ متمسّك بالدنيا، لا يرضى التنازل عن شيء منها. ستّيني لا يريد أن يكون متّسقاً مع سنّه، ولا يريد أن يتصرّف بما يليق بسنّه! فأتذكّر عندذاك الدكتور هشام شرابي الذي قال لي قبل أشهر من وفاته، وكنّا في سهرة معاً، وكان وقتها في الخامسة والسبعين من العمر: تعلّم الإنكليزيّة! أجبتُه بأنّني على أبواب الستين، فماذا تنفعني الإنكليزيّة في هذه السنّ؟ فقال: تصوّر نفسك في سنّي، في الخامسة والسبعين، وتجيد اللغة الإنكليزيّة كلاماً وسمعاً وقراءة وكتابة! خمس عشرة سنة من معرفة الإنكليزيّة، ألا يستحقّ هذا الجهدَ؟ فسألته عن قدرة الذاكرة على تلبية هذه الرغبة وهذه الحاجة اليوم في هذا العمر، فأجابني بأنّ هذا خيار يعود لي، وليس قدراً. ثم سألته كيف يكون التعلّم قال: تدبّر أمرك!

كنتُ إذن، وأنا أتصوّر نفسي في هذا الوضع المثير للسخرية أمام عينيّ معلّمتي، أتذكّر كلام الدكتور هشام شرابي المفكّر المعروف، فأستمدّ القوّة من هذه الذكرى، للانتصار على الشعور المحبط للعزيمة والقاتل للرغبة.

ولم يكتفِ الدكتور هشام شرابي بنصحي مرّة واحدة فقط، بل كان غالباً ما يعود إلى هذا الموضوع عندما كنّا نلتقي بدعوة منه في منزله، أو عند أصحاب مشتركين أو في مقهى. الدكتور هشام شرابي فلسطيني هاجر إلى أميركا بعد قيام دولة إسرائيل، وكان في أوائل العشرينيّات من عمره يوم ذاك، وقد علّم حوالي نصف قرن في جامعة جورج تاون، في العاصمة الأميركيّة نيويورك، ثمّ عاد إلى

بيروت التي أحبّها، والتي كان قد تعلّم فيها عدّة سنوات، ليقضي فيها ما تبقّى من حياته. ظلّ طَوال حياته يهتمّ بمسألة التغيير في العالم العربي، وبمسألة الانتقال من المجتمعات الأبويّة التقليديّة، التي يعاني منها هذا العالم، إلى مجتمعات الحداثة. كان يصرّ عليّ وبخاصة لأنني كاتب، أن أتعلّم الإنكليزيّة. وذلك رغم أنّه لم يكن يحبّ أميركا. وكان يصرّح بعدم حبّه هذا لكن دون تخصيص شيء ما بعينه من أميركا.

لكنّني الآن وقد بدأتُ أتعلّم منذ أسبوعين أشعر كأنني أتقدّم مبتعداً في عتمة تزداد سماكةً، وأشعر أنّني كلّما تعلّمتُ شيئاً هالني ضعف ذاكرتي، وأرعبتني قدرة آفة النسيان على الفتك بالذاكرة. وأتساءل دائماً ماذا تقول عنّي هذه المعلّمة السويديّة في سرّها، وماذا تفكّر فيّ، وكيف تنظرُ إليّ وأنا أكوّر أذنيّ بيديّ الإثنتين، كلّ أذن بيد، وأغمض عينيّ، لأسمع جيّداً ما تقوله، وماذا تقول لزوجها باللغة السويديّة كلّما عادت إلى البيت. فهل تبدي له إعجابها بي، لأنني ما زلت رغم بلوغي سنّ الستّين مصرّاً على عدم الاستقالة من الحياة، ولأنّ عزيمتي على المعرفة ما زالت كعزيمة الشباب؟ أم تقول له إنني أكوّر أذني حتّى أستطيع أن أسمع، وأغمض عينيّ حتّى أستطيع التركيز على ما أسمع، وأنها حين تراني على هذه الهيئة، تمنع نفسها جاهدةً من الانفجار بالضحك؟

ماذا كانت هامة ستقول عنّي لو رأتني مكوّراً أذنيّ بهذا الشكل، مكبّراً مساحتيهما بباطن يديّ، لتصبحا كأذنيّ حمار!

وجاءني أنّ العلم ذلّ! وأنّ العمر ذلّ! وأنّ النسك بالحياة أفضل من التمسك بها.

ثمّ تعود وترنّ في أذني كلمات الدكتور أسعد خيرالله، أستاذ الأدب المقارن في إحدى الجامعات الألمانيّة: لا تسمع كلام من يقول لك: «لم يعد في الأمر ما يستحقّ هذا الجهد!» («ما بقى تحرز!») لا تنصت إليهم. إنّ الصغار يظلمون الكبار، ولا يتحمّلون منهم أن يبقوا محتلّين أمكنتهم. يريدون منّا أن نستقيل، بسبب من أنانيّتهم وتفضيلهم لذاتهم على كلّ ما عداها.

تصوّر نفسك في سنّي، كان يقول لي الدكتور هشام شرابي، وتصوّر أنّك تجيد الإنكليزيّة كلاماً وكتابة وقراءة وسمعاً منذ خمس عشرة سنة، فكم ستكون سعيداً؟

أتذكّر هذه الكلمات كأنّني أسمعها الآن، وأنا مكوّر أذنيّ، مركّزاً على ما تقوله معلّمتي السويديّة، فيعود إليّ تفاؤلي، وأتذكّر الفرح العظيم الذي سيكون من نصيبي حال اكتشاف سرّ هامة فأنتعش كعصفور يستقبل الصباح على شجرة فوق نبع ماء.

وأفتح عينيّ عندما تنتهي معلّمتي من قراءة العبارة، فأنظر إليها محاولاً أن أستعيد ما قالته، وأن أفكّ رموزه.

تتصارع فيّ المشاعر المتناقضة التي تتراوح ما بين الأمل والإحباط، لكنّ الأمل بكشف سرّ هامة يحيني ويعطيني القوّة.

ما كنت قبل هامة لأصدّق أنّ الحبّ قوّة إلى هذا الحدّ، وأنّه طاقة إلى هذا الحدّ، وأنّه أمل إلى هذا الحدّ.

أقولها صراحة: لن أنجح فقط في كشف سرّ هامة بل إنّها ستعود إليّ في يوم ليس ببعيد. هذه قناعة كالإيمان الصرف لا أرى لها

سبباً في العقل، لكنّها راسخة في القلب . إنّني لا شكّ أعيش في انتظار ذلك اليوم وأحيا به.

ربّما ستلومونني يا أصدقائي على هذا الأمل، وربّما سيضحك عليّ أعدائي الذين هم، على قلّتهم، فاعلون.

وسيأخذ عليّ الكثير من أصدقائي وجميع الأعداء أنّني منصرف إلى نفسي وتستغرقني مشاكلي الخاصّة، بينما الوطن ينهار، وبداية حرب أهليّة تجتاحه، وحرب إسرائيليّة تهدّده، ودماء تُهدر الآن ودماء أكثر بكثير ستهدر أيضاً.

سيخجل منّي أصدقائي وسيشمت بي أعدائي وحجّتهم في ذلك أنّ الوطن أغلى ما في الوجود، وأنّ الوطن أغلى من الذات.

لكنّ حبّي لـهامة يا أصدقائي تحوّل إلى دافع للحياة، وهذا الحبّ يمدّني بالطاقة لا لفهم سرّها ـ أقصد سرّ هامة ـ وانتظارِ عودتها وحسب، بل لاجتياز ملايين السنين الضوئيّة.

بل لاجتياز حرب أهليّة مقبلة، ستكون الحرب الأهليّة الثالثة التي أشهدها بعد حرب الـ ١٩٥٨ وحرب الـ ١٩٧٥.

هامة بالنسبة إليّ بصيص نور آتٍ من الأبديّة. إنّ اعترافها بقيمتي ككاتب، وتقديرها لي على هذا الأساس، هو مثل بطاقة دخول إلى الأبديّة. وما الوطن قياساً إلى الأبديّة؟

هامة تعلّمت في أهمّ مدارس بيروت، «الكولاج بروتستانت»، وفي مدارس لندن وجامعاتها، وعملت في نيويورك، وتجيد إلى الإنكليزيّة الفرنسيّة وكذلك الإسبانية. وليس عندها تحيّز لمدرسة أدبيّة أو تيّار

فلسفيّ، وليست مدّعية ولا متذمّرة. وهي قارئة رواية من الطراز الأوّل، ومدمنة على القراءة.

وهامة هي كلّ هذا قبل أن تتعرّف إليّ، وهي كلّ هذا في طبعها، ولمّا قرأتني قبل أن أُدعى إلى تلك المحاضرة، أحبّت كتابتي كثيراً وأحبّت أن تتعرّف إليّ، وهي التي اقترحت على زملائها أن يدعوني، وكانت واثقةً من أنها ستستطيع إقناعهم. قالت لي إنّ البعض منهم فقط كان قد سمع بي، لكن لا أحد منهم كان قد قرأني، ما عدا واحدة قالت إنّها بدأت بقراءة كتاب لي لم يشجّعها على المتابعة فتركته.

ـ وبعد المحاضرة؟ سألتُ هامة ـ هل ما زالت هذه الطالبة عند انطباعها؟ أجابتني بأنها لم تسألها عن ذلك. وكرّرتُ عليها رغبتي في أن تسألها، لكنّ المناسبة لم تسنح لها.

هامة العظيمة هذه أحبّتني إذن كاتباً، بتجرّد وبدون معرفة مسبقة. وهامة يمكن اعتبارها قارئة عالمية عذراء، بلا هوىً خاصّ يشدّها إليّ ويجعلها تميل لصالحي. لا شيء سوى ذوقها وثقافتها ومعرفتها بالرواية.

هامة عتبة بابي إلى الأبديّة.

وهامة تقرأ عادةً بالإنكليزيّة، وتحاول أن تقرأ بالعربية منذ عودتها إلى بيروت، لكنّها تشكو دائماً من أنّ الرواية العربيّة «لا أدري كيف!» (تقولها طبعاً بالعاميّة: «مدري كيف!») وعندما أطلب منها أن توضّح لي رأيها ـ لأنّ هذا الموضوع يهمّني كثيراً، ويهمّني أن أعرف كيف تنظر إلى روايتنا العربية سيّدةٌ مثلها تربّت في الغرب،

وقارئة نهمة للرواية العالمية، ومثقّفة جدّاً بالسينما أيضاً، إذ إنها متابعة لما يُعرض من أفلام سينمائيّة بشكل مدهش ومثير للإعجاب ـ وعندما أطلب منها أن توضّح لي ما تقصده بقولها «مدري كيف!» تكتفي بترداد عبارتها من جديد: «مدري كيف!».

واكتشفت هامة الشعر العربيّ المعاصر أيضاً، بعد عودتها من نيويورك، وأحبّت كثيراً قصائد لنزار قبّاني، وأحبّت بشكل خاص قصيدة «لا تسألوني ما اسمُه حبيبي» مغنّاةً بصوت فيروز. وكانت تردّد منها دائماً هذا المقطع الذي يقول:

لا تسألوني ما اسمه حبيبي
أخشى عليكم ضوعةَ الطيوب
واللهِ لو بحت بأيّ حرف
تكدّس الليلكُ في الدروب

وانتبهتُ يوماً، وأنا أُصغي إلى هامة ترندح هذا المقطع، أنني سكبتُ هذا الصباح الشايَ في الكوب الذي كانت تشرب منه في الأمس، من دون أن أغسله! تعمّدتُ ألاّ أغسله حتى تبقى آثار شفتيها ويديها عليه، ورحتُ أشرب منه بلذّة مضاعفة. وفكّرت في أن أكتب لها ذلك في رسالة بالفاكس أو غيره، من باب البوح لها بحبّي وبرغبتي الدائمة فيها، لكنّني خفتُ من أن يكون هذا الكلام، أدنى بكثير من مستوى الغزل الذي «ترندح» به إذ كيف لكلام من هذا النوع، أن يصمد في وجه ما كتبه الشاعر الغزلي الكبير نزار قبّاني، والذي تغنّيه فيروز؟

لكنّني رغم ذلك، قلتُ في نفسي، أحبّ هذا الكلام «الصحيح»

وإن لم يكن «جميلاً»، هذا الكلام البسيط الذي يقترب أكثر ما يمكن من الحياة العمليّة، والذي يقول حدثاً مؤثّراً نتج من عاطفة عميقة. لذلك عزمتُ على أن أصرّح لها به وصرّحتُ، فما كان منها إلاّ أن قفزت إليّ وضمّتني قائلة:

ـ هذا يساوي الأدب كلّه، تعال!

وقادتني إلى الفراش، وكانت تتقن استعمال العطور، وكنت أحبّ ذلك.

وقد اعتدتُ على أن أضع رأسي هناك فوراً، حيث يداعب لهاثي الشعر الذي تعتني به عناية فائقة، كما يعتني اليابانيّون بحدائق بيوتهم التي يُحبّونها ويفخرون بها أمام الناس والآلهة.

ليس من منطقة نائية في جسدها فتُهمَل، كل ناحية منه هي المركز بالذات مهما نأت. وذلك المكان هو حديقةُ بيتها الأماميّة.

كانت تذهب من وقت إلى آخر إلى إستنبول لتشتري أنواعاً من العطور، تعيّنها مسبقاً أو تكتشفها هناك. وكانت تقصد إيران وبلاد الهند وتعود بأنواع لا يعرفها أحد. وكانت تذهب إلى اليمن أيضاً وتعود من هناك بعطور لها روائح كانت تصفها بالبكر.

ثمّ تقدّم لي كلّ ذلك بذوق رفيع على طبق من جسدها.

على جسد أملس شديد السمرة، كما لم أحبّ يوماً وكما لم أشتهِ، وكما لم يخطر على بال.

لم يخطر على بالي يوماً أن يكون الجسد صناعةً رائعةً إلى هذا

الحد، وأن يكون العري فنّاً راقياً إلى هذا الحدّ. نبّهتني علاقتي بهامة إلى أنّني من طبقة متوسّطة، وأنّ والدي كان مثقّفاً تشغله أمور الأوطان على كامل هذا الكوكب، وكان يسعى إلى إصلاحها، لذلك لم يكن يهتمّ إلاّ بما يعتبره الجوهر فقط وعلى الدوام.

أقول هذا الآن وقد زادت الحرب التي شنّتها إسرائيل في تمّوز الماضي اللبنانيين انقساماً على انقسام، فالمصانع مدمّرة والجسور مهدّمة والمهجّرون لا يُحصون، والديون تزداد.

وأقول هذا الآن وشوارع بيروت مهجورة ومقفرة، بسبب خوف اللبنانيين بعضهم من بعض، ومن السيارات المفخّخة والاغتيال.

ومسابح بيروت خالية وكذلك فنادقها ومراكزها السياحية. لم يأت المغتربون هذه السنة لزيارة أهلهم، ولم يأتِ السيّاح، وتَرَكَ لبنان سريعاً من استطاع من اللبنانيين لئلاّ يقفل المطار فجأةً.

وباتت الفتاة المثالية التي يحلم بها الشاب اللبناني هي تلك التي تملك جواز سفر أجنبيّاً. (إحمِ لي هامة يا الله!)

أنا من الذين لا يحبّون استعمال أفعل التفضيل كيفما اتفق: «أجمل مرّة في حياتي»، «أقوى علاقة أقمتها»، «أكثر رجل أحببته»، إلخ. لكنّني أقولها صراحة: أحبّ ذلك من هامة، أقصد حين تستعمل هذا الفعل، لأنّ لقولها قوّة الحقيقة، وله أثر ابتسامة الحياة.

كلّما قالت لي كلاماً من هذا النوع، أتمنّى لو أنّني أستطيع زيادة إيجار الشقّة التي أملكها، لأنّ زيادة الدخل من كتبي غير وارد،

وأتمنّى لو كان عندي عدد كبير من الشقق في بيروت، أؤجّرها بأحلى الأسعار، فيسمن مدخولي الشهري، ويصبح في استطاعتي إكرامها بما تستحقّ من إكرام. هي تذكر أحياناً أمامي أشياء تحبّ أن تقتنيها، فأحترقُ رغبةً في أن أشتريها لها، وأروح أحلم بذلك وأتصوّر كم سيكون وقع المفاجأة عليها كبيراً وجميلاً.

عندما تستعمل فعلاً من هذه الأفعال، عندما تقول لي مثلاً إنّني أكثر رجل استطاعت أن تتواصل معه، أو أن ترتاح إليه أو أن تشعر معه بالاطمئنان، أشعر بأنّ الدنيا أعطتني ما يكفي، وبأنني لا أريد المزيد، وحين تقول لي بأنها ما التذّت في العناق كما تلتذّ معي، أشعر بأنني بحاجة إلى النهوض من «بينها»، والرقص على رجل واحدة من الفرح، كما رقص أحد الخلفاء مرّة عندما أطربه أحد المغنّين الملهَمين، وأتذكّر في الوقت نفسه، ما قام به الخليفة الأمويّ يزيد، عندما غنّى له المغنّي العبقري ابن سريج وأطربه، فنهض عن كرسيّه وأمر ابن سريج بأن يكشف عن ذَكره، ثمّ انحنى عليه وقبّله (وأظنّ أنّه عضّه) ثم أمره بأن ينصرف مهدّداً إيّاه بقطع رأسه إن نضح منه شيء ممّا جرى.

أفهم الرغبة في المعصية عند الشعور بالفرح العظيم.

أفهم أن يقترف الإنسان المعصية في هذه الحالات، خصوصاً إذا كانت المعصية من هذا النوع الذي لا يؤذي. وهكذا فقد عضضتها مرّةً.

عضضتها وآلمتها في ذلك المكان بالذات، «ما بينها»، فصرخت صراخاً سمعه الجيران، الذين نتحاشاهم عادة، ونتحاشى أن ننظر إليهم صراحةً وأن ينظروا كذلك إلينا. لا نحبّ، نحن الإثنين، هذا

الجانب الحشري من العالم الثالث ـ كما كانت تقول هامة. هذا الجانب المتطفّل والمتدخّل في أمور الغير، والذي لا يقبل بأي خروج عن المعتاد المتبّع منذ آلاف السنين!

صرخت من الألم صرخةً أعادتني إلى صوابي، وبكتْ، ونهرتني ووصفتني بالمجنون.

ـ «كسّي بفتاك؟» قالت لي.

كانت هذه أوّل مرّة تتلفّظ بكلام سوقيّ إلى هذا الحدّ، وكان كلاماً غريباً شديد الغرابة وخارج السياق الذي تجري فيه علاقتنا، وكان وقعه قاسياً جدّاً عليّ، لأنّه بدر منها بالذات ولأنّه قاس بحدّ ذاته. واحترت كيف أفسّر لها، أنني لم أتوقّع أن تكون العضّة مؤلمةً إلى هذا الحدّ. وقلت لها إنها كانت تعبيراً عفويّاً خالصاً عن مزيد من الحبّ.

وظلّت تتألّم أيّاماً، وظلّ مكان العضّة يؤلمها أسابيع كلّما لامسه شيء، فساعدتُها على تحمّل ذلك، وساعدتها على الشفاء منه.

يوم كنّا صغاراً كانت المدرسة تأخذنا في رحلات نخيّم أثناءها في الجبال. كنّا نزوَّد بالتعليمات التي يجب أن نأخذ بها إذا جُرح أحدنا أو عُض أو عُقص.

أعرف إذن أنّ أدوات الفم جميعها فاعلة في مثل هذه الحالات... ففعلتُها حتّى كان يصيبها الخدَر مؤاساةً وتعبيراً عن الندم.

وكانت إذا ما ذهبت إلى دار التجميل لتعتني بجسمها، تفرض عليّ أن أكون في كامل جهوزيّتي، وحذارِ أن أخطئ أو أن أخل. ثمّ

وهذا هو الأهمّ: الوقت!

كانت ترفض أن تُعامل كمحطّة على خطّ قطار. كانت إذا ما بلغتُ سريعاً لسبب ضيق الوقت تعترض عليّ. كانت تأبى ذلك. وكانت تقول لي إنه إذا لم يكن لديّ الوقت الكافي فلا لزوم لذلك.

كانت تتصل بي وتقول:

ـ إحزر أين أنا وماذا أفعل؟

ولمّا كنت أعجز كانت تقول:

ـ «اليوم عاملة بنت!» وتعني بذلك أنها اليومَ تهتمّ بنفسها وبزينتها، كما تهتمّ بنفسها فتاة عاديّة تحلم بالزواج محطّةَ وصول في حياتها، وتمضي الوقت في الاهتمام بنفسها وبزينتها منتظرةً قدوم فارس الأحلام.

«عاملة بنت!» كنتُ أحبّ حين تقول لي ذلك، لأنّها كانت تعني في ما تعنيه، أنني فارس أحلامها، ولأنّها كانت تعني أنّها تقوم بكلّ ذلك من أجلي، ومن أجل أن أتمتّع به أنا ولا أحد غيري. يا إلهي كيف يمكن أن يضيع كنز كهذا لم يقتنه ملك ولا شاه ولا قيصر ولا فرعون؟ كيف أقبل بالعيش هذا التافه البليد الرتيب بدونها.

الإنكليزيّة! هذا شعار المرحلة الآن، فشدّي الحيل يا معلّمتي السويديّة وتبنّيني!

اجعلي من تعلّمي هذه اللغة قضيتكِ! فإمّا أنجح في إتقانها فتحقّقي حلماً من أحلامك وإمّا لا فتفشلين. كوني كذلك! اجعليها رهان

حياتك. لا تفكّري بكسب غير هذا الكسب: أن تنجحي سريعاً في أن تعلّميني الإنكليزية! فلا يغفُ لكِ جفن قبل أن تطمئنّي إلى أنني وصلت.

لو كنتُ كاتباً مشهوراً لكان هذا ممكناً. كان باستطاعة معلّمتي حينذاك أن تعلن بفخر أينما كان أنها علّمتني اللغة الإنكليزية. «علّمتُ الكاتب الشهير الحبيب»، وكان في إمكانها أن تقول إنّها تعرف بيتي ومطبخي وحمّامي والمنشفة التي أنشّف بها يديّ، ومتى أبرد ومتى أشعر بالدفء...

كوني أمي لهذه الناحية!

بليز!

تعالي وأقيمي أنت وزوجكِ في بيتي، وحضّري طعامكما في مطبخي، وكُلا من عندي وعلى حسابي، وناما في غرفة نومي، وتمدّدا على أرائك صالوني. اسكنا عندي، فـ«يا ألف مرحبا» و«يا ألف أهلا وسهلا»، وذلك كلّه فقط مقابل أن تكلّميني دائماً بالإنكليزيّة حتى لا أنسى ما أتعلّمه.

لأنني أنسى وتعرفين ذلك، ولأنّ والدتي التي تكبرني بستّ عشرة سنة تنسى ولا تعرفين ذلك، وقد استطعتُ إفهامك مرّة أنّني في هذه المرحلة من العمر بحاجة إلى النسيان سبع مرّات، حتى تثبت الكلمة أخيراً في ذاكرتي. هذا ما يؤكّده لي الدكتور الخبير في علم نفس «العمر الجميل» كما يحلو له أن يسمّيه.

لقد زرت هذا الطبيب النفساني، بعدما أشار عليّ طبيب القلب بأن أتناول حبّة «كونكور ٢٠ ملغ» يوميّاً لمدّة طويلة وحتّى يزول هذا

الاضطراب. ورحت أقرأ بانتباه وقلق شديدين ورقة المعلومات المرفقة مع الدواء وأركّز على الآثار الجانبيّة التي يتركها، وبخاصّة على الرغبة الجنسيّة. وأكثر ما لفتني كان أنّ التوقّف عن استعمال هذا الدواء يجب أن يتمّ تدريجيّاً وعلى فترة طويلة تمتدّ إلى أشهر.

كنت أرى نفسي وأنا أقرأ هذه المعلومات، مطابقاً تماماً للصورة التي في ذهني عن الرجل المسنّ الذي لا عمل له سوى الحدّ من تدهور صحّته.

سألني الطبيب النفساني أسئلة كثيرة كنت أجيب عنها باختصار وعلى مضض. لم يرد على بالي في البدء أن أزور طبيباً نفسانيّاً، لكنّ صديقي المحامي الذي رفض أن يقيم الدعوى على هامة هو الذي أشار عليّ بذلك وأقنعني به:

ـ تستأنس برأيه على الأقلّ.

وقال لي هذا الطبيب إنّ دقّات القلب المستجدّة تُحَلّ بمعالجة مسبّباتها، ووصف لي حبّة مهدئة للأعصاب أتناولها في الصباح بعد الفطور لمدّة ثلاثة أو أربعة أشهر.

ـ ثمّ نرى فيما بعد!

ماذا يمكن أن يكون فيما بعد؟ سألته، فأجابني بأنّه قد نضطرّ إلى تمديد مدّة تناول الدواء.

تماماً كالصورة التي في رأسي عن المسنّين الذين يشيخون مشغولين بصحّتهم، شاكرين الله كلّ صباح على أنّهم ما زالوا أحياء. كلّ يوم جديد هو مكسب لهم.

ليس من السهل عليّ أن أقبل بهذا الأمر الواقع. فإمّا الإنكليزيّة وإمّا الموت. لا ذلك الموت الذي أنتظره بذل حتّى يأتي ساعة يشاء، والذي يبعث إليّ من وقت لآخر بإشارات تذكّرني به وتعلمني بأنّه دائماً وراء الباب، وما عليه سوى أن يخطو خطوة لأصير في حضرته. هذا الموت الخوف الذلّ لن أدعه يذلّني. أمّا الموت الذي عنيته فهو المكلّل بالرغبة في النصر.

بهامة!

هامة هي النصر!

هامة ليست حلماً إنّها حقيقة مؤجّلة. إنها حقيقة واقعة بعد سنة على الأكثر. وسترون يا أصدقائي.

فشدّي الخطى يا معلّمتي، ولأكن قضيّتك. بليز!

وشددنا الخطى نحن الإثنين، وكانت تعلّمني ثلاث مرّات في الأسبوع فصارت خمساً، كلّ يوم ما عدا السبت والأحد. كنت مستعدّاً لأصرف كلّ ما ادخرتُه من مال منذ سنين.

وكانت في تلك الأثناء، تسرّع البحث عن عمل بأجر كامل، وكنتُ مرتعباً من أن تجده قبل أن أصل إلى هدفي. لذلك أيضاً رفعتُ أيّام عملها من ثلاثة إلى خمسة، علّها تخفّف من اندفاعها في البحث عن عمل كامل.

وذات يوم وبينما كنتُ منصرفاً بالكامل إلى دراستي لا يشغلني أمر سواها، رنّ جرس الهاتف وكانت المتّصلة أختي غوى وكانت تبكي

بقوّة وتشهق، وكان اليأس واضحاً في صوتها.

(لماذا تبكين يا أختي؟ ولماذا ينضح اليأس من صوتك؟ فهل أنتِ أيضاً، أنتِ التي تكبرينني بسنة، مضطرة مثلي إلى تعلّم الإنكليزيّة، وفي هذه الظروف المصيريّة التي يمرّ بها لبنان، والتي تنذر بمجازر أهليّة رهيبة بعد هذا الدمار الذي خلّفته الحرب الإسرائيليّة الأخيرة؟)

لكنّها بادرتني بالقول:

ـ تتركونني وحدي أهتمّ بأمّي، وكأنّها ليست أمّكم.

وتابعت تبكي لأنّنا نتركها وحدها تهتمّ بأمّنا جميعاً!

تريد أختي أن تقول لي إنّي أنسى والدتي بسبب انشغالي بهامة.

نعم! هذا ما تريد أن تقوله!

فغلى دمي غضباً، أنا المعتدل المزاج.

وهممتُ بأن أبصق في وجهها ما يعتمل في قلبي منها، وهممتُ بأن أقول لها إنّها الوحيدة بيننا التي استفادت من والدتها، بل الوحيدة التي استغلّتها، وإلى هذا الحدّ! وإنّ والدتها أسدت لها أعظم الخدمات، فهي التي اهتمّت لها بأولادها، وبخاصّة حين كانت تغيب طويلاً مستغلّةً وجود زوجها في الخارج، وإنّ والدتها هي التي ساعدتها على أن تعيش حياتها كما يحلو لها دون رقيب أو حسيب، وهي التي فضّلتها على جميع أولادها الذكور والإناث، وإنّه من غير الأخلاقي أن تتخلّى عنها الآن.

لكنّني لم أقل لها ذلك. وحسناً فعلتُ.

بين أختي الكبرى غوى ووالدتي تواطؤ فطريّ، فبعد وفاة والدي

وبعد أن تقاسمْنا تركته فيما بيننا، كان بيتُ الوالدين حيث نشأنا، وحيث كانت ما زالت والدتي تقيم، من نصيب أختي غوى شرط أن يبقى للوالدة حقُّ السكن فيه طوال حياتها، وقد قبلت غوى بهذه القسمة لأنّها لا تقيم مسافة ما بينها وبين والدتها. ثمّ إنّ غوى أقنعت أمّها فيما بعد ببيع هذه الشقّة، واشترت لها بقسم من المبلغ شقّة صغيرة في المبنى الذي تسكنه، ووضعت لها الباقي في المصرف. وكانت هذه الشقة الجديدة في الطبقة ذاتها التي تسكن فيها أختي، بحيث إنّه لم يكن على والدتي إلاّ أن تفتح بابها لتصير عند ابنتها، والعكس. وقد انتقلت الوالدة إلى هذه الشقّة الجديدة بسعادة غامرة، ونسيت شقّتنا القديمة حيث كانت تسكن منذ أن تزوّجت، وحيث حبلت بنا جميعنا، وحيث ولدت قسماً منّا قبل أن صارت تنتقل إلى المستشفى لتلد.

كانت والدتي سعيدة بمجاورة أختي غوى وكانت تمضي أكثر وقتها عندها مهتمّة بأولادها، في الصباح والظهر والمساء، وبخاصّة أثناء غيابها. فزوج أختي يزور عائلته مرّة كلّ عدّة أشهر.

لكنّ هذا الحلّ الذي ابتدعته غوى كان في الوقت نفسه مناسباً جدّاً لوالدتي، وخاصّة عندما بدأت تتقدّم في السنّ. وقد تبيّن لنا نحن أولادها جميعاً، بنات وبنين، أنّ هذا الحلّ بعد التجربة، كان مثالياً، وتبيّن لنا أيضاً أنّ غوى أدّت لنا جميعاً وبدون أن تدري خدمةً لا تقدّر بثمن، ولا يستطيع أحد منّا أن يبادلها خدمةً بقيمتها، إذ كانت ترعى والدتي حين تمرض، وصارت تهتمّ بأكلها وشربها ولباسها حين بدأت تضعف، وحين عجزت عن السعي كثيراً في الخارج على رجليها. والأهمّ من ذلك كلّه، هو أنّها كانت إلى جانبها دائماً منذ بدأت تنسى، وقد كلّفت ابنها الانتباه لها والنوم عندها.

كان هذا الحلّ الذي ابتدعته غوى مثاليّاً إذن، لكنّ هذا لا يعني أنّه يحقّ لها معاتبتنا ولومنا وإشعارنا بالذنب على الدوام.

ثم أضافت وهي ما تزال تشهق بالبكاء:

ـ كأنّها ليست والدتكم!

فاقترحتُ عليها حينئذ أن نضعها في مأوى، فهذا هو الحلّ المثالي بالنسبة إلينا جميعاً، لأنّه لا أحد منّا يستطيع بحكم وضعه أن يستضيفها في بيته (ما عداها هي طبعاً!)

وقد وافقني على اقتراحي هذا فيما بعد أختاي وأخي.

أمّا هي، فأثار هذا الاقتراح ثائرتها وقالت إنّها، أي الوالدة، لا تستطيع التكيّف لحظةً هناك، بل ستلقى حتفها فوراً.

كنتُ، لسنوات طويلة، قبل أن تنتقل والدتي إلى بيتها الجديد قرب أختي، أزورها مرّة في الأسبوع، في المساء عادةً وقتَ العشاء، وكانت والدتي تأنس بي كثيراً وتتسلّى، لذلك كانت تلومني إذا ما تأخّرت عن زيارتها. لكنّ زياراتي لها تناقصت عفواً دون قرار منّي حين انتقلتُ إلى شقّتها الجديدة، وذلك ربّما لأنني اطمأننت إلى أنها محاطة برعاية أختي واهتمامها، أو ربّما لأنني ظننت أنّ أختي بحاجة إليها لألف سبب وسبب، وأنّ والدتي مكتفية بحاجة أختي إليها.

كنت بالمناسبة على علاقة «جيدة» أو لنقُلْ عاديّة بأختي. لكنني أردت لا شكّ أن أفسح في المجال «للأمور» (أقصد «أمور» أختي) أن تمشي بدون علمي. كنت أشعر أنّ همّ والدتي الأوّل هو أن «تحمي»

أختي غوى من كلّ ما قد يؤذيها. لذلك كلّه ابتعدتُ، ولم أشعر عند ابتعادي أنّني في موقع اللوم. ولم أشعر بذنب كبير.

صرت أباعد ما بين زياراتي شيئاً فشيئاً، وصرت أزورها مرّة كلّ أسبوعين أو أكثر.

والحقيقة أيضاً أنّ والدتي بعد انتقالها إلى شقّتها الجديدة، لم تعد تلحّ عليّ لزيارتها كما كانت تفعل في السابق. ظلّت تطمئنّ عليّ بالهاتف، وظلّت تطلب منّي أن أزورها، لكن من باب العادة الكلاميّة لا غير.

وتريد أختي اليوم أن تشعرني بالذنب، لأنّني أتركها بمفردها تهتمّ به«والدتنا جميعاً»!

تريد أختي أن تلمّح في لومها هذا، إلى أنّني غارق حتّى أذنيّ في الاهتمام بهامة، وأنّ هذا ما يمنعني من الاهتمام بوالدتي.

فماذا تريد منّي غوى؟ هل تغار منّي لأنّني أقيم علاقة رائعة مع هامة؟ ألم تعطها الحياة ما لم تعطِ أحداً؟ فهي البنت الجميلة المفضّلة، وهي التي تزوّجت من رجل غنيّ أُغرم بها من أوّل نظرة ولا يزال، وهي التي تقيم علاقة أو علاقات خارج الزواج بحماية وغطاء من والدتها. فما الداعي للغيرة منّي إذن؟

لكنّ هذا التوتّر القائم بيني وبين غوى لم يمنعني من التفكير العميق بمصير والدتي التي صارت تنسى إلى حدّ أنّها باتت بحاجة إلى رعاية مستمرّة. هذا ما يشغل البال، وهذا ما أخافني، وقد بدأتُ أرهص بأنّه قد يترك أثراً عميقاً على المقبل من أيّامي وعلى خياراتي

وعلى كلّ شيء أقوم به. فوالدتي تكبرني بست عشرة سنةً فقط، وأنا لا زلت مصرّاً على تعلّم الإنكليزيّة. فهل لهذا الإصرار معنى، أم أنّه يصحّ عليّ القول «عنزة ولو طارت!».

ومضت الأيّام والأسابيع وأنا شادّ الخطى ومنصرف بكلّيتي إلى بلوغ الهدف.

ولِمَ لا؟

وما ينفع والدتي وما ينفعني أن أستسلم وأن أغيّر في خططي ومشاريعي، وما ينفعها وما ينفعني أن أموت قبل الأوان. إنّ الموت استسلاماً لليأس ذلّ لا أرضاه.

خمسة أيّام في الأسبوع دون انقطاع، إلى أن أحسست بعد حوالي أربعة أشهر، أنني قد حصّلت من الإنكليزيّة ما يسمح لي بالعودة إلى هذه الأفلام التي ركّزت عليها هامة بشكل خاص، وبمشاهدتها على مهل، وبتأنٍّ.

قلت: أبدأ بمشاهدة أوّل فيلم أتت به، مستعيناً بالحوار المكتوب بالإنكليزيّة أسفل الشاشة، فأوقف العرض عند كلّ عبارة وأحاول فهمها ما استطعتُ، ثمّ أنتقل إلى العبارة التالية، وهكذا دواليك. وأردت بهذه الطريقة تحقيق هدفين مرّة واحدة: أتقدّم أوّلاً في إدراك محتوى وجدان هامة، وأتقدّم في الوقت نفسه في معرفة الإنكليزيّة.

وقلت: إنّ هذه الطريقة أفضل من الانتظار.

(لم أقرأ رواية «غراهام غرين» التي بني عليها هذا الفيلم، عن قصد،

لأنّ هامة لم تقرأها، ولأنّني أريد مثلها أن أشاهد هذا الفيلم كفيلم ليس إلاّ، أي بغضّ النظر عن علاقته بالرواية، التي لن تفيدني قراءتها شيئاً في معرفة سرّ هامة)

انتبهتُ منذ الدقائق الأولى أنّ مشاهدتي الفيلم بهذه الطريقة قد تدوم ساعات بل أيّاماً. لأنّه كان عليّ أن أقف عند كلّ عبارة، وعند كلّ كلمة، وأن أقف طويلاً. لذلك نقلت التلفزيون وآلة العرض إلى غرفة النوم، حيث كنت أتمدّد على السرير، لأنّ الجلوس طويلاً على كنبة مهما تكن مريحة، يسبّب لي آلاماً في الظهر.

أنا إذن ممدّد على السرير في غرفة النوم، وفي يدي الريموت كونترول، وإلى جانبي قاموس إلكتروني إنكليزي فرنسي، وقلم ودفتر أسجّل عليه الكلمات التي أبحث عن معانيها في القاموس.

وقد قرّرتُ منذ البداية ألاّ يفوتني شيء من هذا الفيلم، وقرّرتُ أن أبلغ أعماقه، فلا أبقي فيه معنىً مغلقاً أو زاوية معتمة. فهامة حالّة فيه. إنّي أمام هامة التي ستنكشف عليّ بعد لحظات.

وإلاّ فلماذا كانت تحبّه هذا الحبّ؟

حين ضغطتُ على الزرّ ليبدأ العرض متسلّحاً بشوقي إلى هامة وبما حصّلته من الإنكليزيّة في الأشهر الماضية، شعرتُ كأنّي أمام عالم مهيب، تنكشف فيه الأسرار. كنتُ خائفاً مستعظماً ما سيتضّح لي، بحيث إنني في لحظة من اللحظات تساءلت عمّا إذا كان عليّ أن أوقف العمليّة بكاملها، وأن أعيد التلفزيون وآلة عرض الأفلام إلى مكانهما في الصالون، وأن أعيد الفيلم إلى مكانه من المكتبة، لكنّني كنت بدأت وكان الفيلم انطلق. هامة تستحقّ المخاطرة.

وتذكّرت قبل أن ينطلق العرض، ما يقال عن كشف الأسرار، إنّه قد يُفضي إلى انخطاف الأبصار وأحياناً إلى العمى.

وأكثر ما أرهبني أن يكون ما سأكتشفه ضدّ مصلحتي، وأن ينبئني بأنّ عودتها مستحيلة، وأنني لست الرجل «المناسب».

لكنّني قلت في نفسي لا بدّ من الإقدام على هذا، لا بدّ من رؤية هذا الفيلم بتأنٍّ وبلغته التي تكوّن فيها، بلغة الكون الآن.

أحسست فعلاً، وقد انطلق الفيلم، أنّني أشاهده للمرّة الأولى، رغم أنني شاهدته من قبل مرّةً مع هامة، وشاهدت مقاطع منه عدّة مرّات وحدي كلّما استبدّ بي الحنين إليها. لكنّني كنت أشاهده في السابق بدون خطّة وبدون هدف واضح.

أوّل ما لفت انتباهي هذه المرّة هو الجمال. كلّ شيء جميل! الممثلون جميعاً، ولباسهم والمطر والعتمة والبلل...

وإذا بلّلهم المطر فلا يبتلّون مثلنا. إنهم كائنات تشبهنا لكنها ليست مثلنا. ويصحّ فيهم قول أبي الطيّب المتنبّي:

فإن تفق الأنام ولست منهم
فإنّ المسك بعض دم الغزال

يظهر في المشهد الأوّل من الفيلم الكاتب الروائي بندريكس (رالف فينس) وهو أمام الآلة الكاتبة، يكتب قصّة علاقته الغراميّة المرعبة بساره (جوليان مور). ثم نراه يتمشّى تحت المطر حاملاً مظلّة، ثم يلتقي بهنري (ستيفن ري) زوج ساره الذي كان هو أيضاً يتمشّى

تحت المطر، لكن بدون مظلّة.

تأمّلت الكاتب العاشق بندريكس جيّداً في المشهد الأوّل: وجهه يملأ الشاشة. يشرب كأساً من الويسكي الصافي الاصفرار. بدون ثلج ولا ماء. يبدو عازماً منصرفاً إلى الجوهر، وكاتباً كما نعرف عن الكتّاب في النصف الأوّل من القرن الماضي.

خِفْتُ!

خفتُ حين بان وجهه، وأوقفت العرض في حركة لاإراديّة، واسودّت الشاشة فوراً.

خفت أن يكون الرجلُ «المناسبُ» الذي ذهبتُ معه هامة يشبهه. إنّه، أي بندريكس، أصغر منّي بعشرين سنة على الأقلّ، ووجهه حاسمٌ كالقدر، وعازمٌ لا تصمد في وجهه امرأة إن شاء مهما تكن قدّيسة.

خفتُ كما يخاف طفل من غريب أن يخطف له أمّه بتواطؤ ضمنيّ منها.

تذكّرت على الفور ما قاله لي أحد الأصدقاء المقرّبين يوماً، وكان عمره يقارب الخمسين، قال لي إنّه مغرم بسيّدة متزوّجة، وإنّها ما زالت تمانع، وإنّه التقى زوجها بالصدفة مرّة فخاف واضطرب. وقال حين سألته عن شكله: إنّه كالشمس يحرق ويُعمي! وتذكّرتُ صديقاً آخر باح لي مرّة أنّه التقى بشاب دون العشرين، فسحر به واضطرب كما يضطرب المراهقون، وفقد قابليّته على الأكل بقيّة النهار، ما شغل بال زوجته وأولاده. (نقول عن امرأة إنها رائعة الجمال، وهذه الصفة من فعل «راع» الذي من أحد معانيه

الأساسية، أخاف وأرهب.)

فإذا كان منافسي وغريمي بهذا الجمال الأكيد والحاسم والعازم، وإذا كان بهذا الشباب، فعليّ أن أضع نفسي فوراً خارج الموضوع، لأنّني لستُ صالحاً للمنافسة. لا تتوفّر فيّ الشروط. ولأنّ هامة جميلة، وتلبس مثل هؤلاء «الناس» الذين أراهم في هذا الفيلم وفي غيره من الأفلام المشابهة، وتأكل مثلهم وتقرأ ما يقرؤون، وعُريها يشبه عريَهم.

كنتُ أظنّ، قبل ان أتعرّفَ إلى هامة أنّ الناس يشبهون بعضهم بعضاً عراةً، وأنّ عُرْيَ الفقراء كعري الأغنياء، وأنّ المرأة الفقيرة إذا ما تعرّت أشبهت المرأة الغنيّة.

خطأ فادح!

الغنى على عري الأغنياء درجة نحو فوق، نحو سماء مورقة.

لكنني انتصرت سريعاً على المفاجأة وتابعت الفيلم، متذكّراً أنّ الخطوة الأولى كثيراً ما تكون متعثّرة.

لاحظ بندريكس عشيق ساره أنّ هنري زوجها مضطربٌ وأنّه ليس على بعضه، فعرض عليه أن يرافقه إلى البيت فوافق. وفي البيت قدّم هنري الزوج إلى بندريكس عشيق زوجته كأساً من الويسكي، وسكب لنفسه أيضاً كأساً مماثلة، ثم باح له أنّ زوجته ساره تخونه، وأنّه حصل على عنوان تحرّ خاص، يريد أن يكلّفه مراقبتها. لكنّه اعترف له أيضاً بأنّه لا يجرؤ على ذلك، إذ ليس من السهل عليه مجابهة الأزواج المخدوعين مثله، في قاعة الانتظار عند التحرّي. فعرض عليه بندريكس عندذاك، وقد تآكلته الغيرة، أن يذهب

مكانه، وأن يدّعي للتحرّي بأنه عشيقها المخدوع. ففوجئ هنري أوّلاً بالعرض لكنّه وافق عليه.

ـ الصديق عند الضيق! قال له بندريكس.

العبارات الأولى التي رافقت عودة بندريكس وهنري إلى بيت الأخير هي:

Or perhaps I wouldn't be writing this... if I had known then who I hated//. was it Henry? Was it his wife Sarah?// or was it some other who was yet to be revealed to me?//

كانت هذه العبارات صعبة جدّاً عليّ، حدُّ الاستحالة، لكنّني لم أشعر باليأس، بل أمضيت الوقت الطويل أدقّق في كلماتها وتراكيبها.

صحيح أنّ الحبّ يعطي قوّة.

لكنّ أسبوعاً مضى وأنا لم أُنجز بعد عدداً يسيراً من المشاهد.

وبعد أن حاولت طويلاً حلّ رموزها، دون أن أصل إلى نتيجة مرضية، قرّرت أن أستعين بمعلّمتي، فدوّنتُ هذه العبارات على ورقة وسألتها عن معانيها وتراكيبها، ولكن من أين لمعلّمتي أن تشرح لي كلّ هذه المعاني الدقيقة، وأنا لا أعرف لغة تعرفها ولا هي تعرف لغة أعرفها.

لكنّ معلّمتي لمّا رأتني على هذا العزم والإلحاح، أخذتْ منّي النصّ

وطلبت منّي أن أمهلها بضعة أيّام.

وفي أثناء هذه المهلة، تابعت المشاهدة بدون توقف، كلمةً كلمة وعبارة عبارة، بلا ملل أو كلل، إلى أن وصلت إلى المشهد الذي يمارسان فيه الجنس معاً لأوّل مرّة على كنبة في منزلها الزوجي، وذلك بعد عودتهما من السينما وعشائهما معاً في المطعم حيث باح كلّ منهما بحبّه للآخر. حبّ نزل عليهما كالصاعقة! coup de foudre كما يقول الفرنسيّون.

خلع ثيابه بيضع حركات إشاريّة ثم غرز نفسه فيها وبانت مؤخّرته ككتلتين ممتلئتين متماسكتين بين فخذيها المستقبِلَتين، ورؤوس أصابع يدها اليسرى مغروزة في الكتلة اليمنى من مؤخّرته.

هي في وضعيّة تشبه لحظة من لحظات راقصة الباليه، متوتّرة الجسد لكن على متعة لا على فنّ وتعبير فقط، وهو يروح ويجيء فيها.

واللافت في هذا المشهد هو أن مؤخّرته بكتلتَيها الممتلئتين كانت تعلو وتهبط في وسط المشهد دائماً، وكانت لامعةً وباديةً بوضوح، وملساء لا وبرة عليها كأنّها من مرمر أو عاج أو حجر كريم لا يعلق عليه شيء، ولا حتّى ذرّات الغبار.

لم يكن يرافق هذا المشهد صوت إلاّ الموسيقى.

وأذكر أنّ هامة كانت ملتصقة بي حين كنّا نشاهد هذا الفيلم أوّل أيّامنا معاً. كانت ملتصقة بي بصمت وبدون حراك. وكانت حابسةً أنفاسها. وجاءني في تلك اللحظة أن أسترقَ النظر إليها، وهي على هذه الحال، لأرى كيف كانت شاخصة إلى هذا المشهد الذي

ازعجني في الحقيقة، لكنّني وجدت أنّ هذه البادرة ستكون في غير محلّها. خصوصاً أنّنا كنّا نحن الإثنين ننظر إلى المشهد كأنّ أحداً لم يرَه غيرنا. كنّا نتلصّص عليه بالسرّ حتى لا يرانا العاشقان اللذان يمارسان الجنس والخيانة في آن واحد، وبلذّة هادرة متفجّرة لكن دون صوت. كنّا وحدنا أمام هذا الحدث الحيّ.

لقد أزعجني في الحقيقة هذا المشهد. وقد صرّحت لها بذلك بعدما انتهى الفيلم. وأبديت لها استغرابي من ألاّ يكون على فلقتي مؤخّرته وبرة واحدة، لتبدوا كأنّهما من مرمر حيّ! فقالت بعدما رأتني أذهب بعيداً في تشابيهي:

ـ هذه مؤخّرته بكلّ بساطة! («هيدي طيزه!»)

وإذا كانت هذه مؤخّرته، فهل يمكن ألاّ يكون عليها وبرة واحدة؟ هل يوجد جسد لا وبرة عليه في أي مكان منه؟

فسكتتُ ولم تُجب بشيء، وكان بادياً عليها بوضوح أنّها لم تقتنع بما أقوله، وأنّ سكوتها كان من باب المراعاة لا غير، لأنّها كانت تدرك ما وراء كلامي المنفعل، وإن لم يكن هذا الانفعال بادياً عليّ. كانت تدرك أنّني أدافع عن نفسي. وكانت تدرك أنني أدّعي أن مؤّخرة كهذه لا وجود لها إلاّ في السينما، بينما في الواقع لا! وأنني بالتالي أريد أقول لها من وراء كلامي، إنّ ما سرق انتباهها إلى هذا الحدّ هو المثال لا الحقيقة، وأنّ الرجال الحقيقيين هم مثلي أنا لا مثلهم.

وبما أنّني في مرحلة البوح وتظهير الذات والبحث عن الأسباب، أستميح أصدقائي عذراً لأقول ما يأتي:

أنا لا أجيب عن السؤال التقليدي الذي يوجّه إلى الكتّاب: لماذا تكتب؟ لأنني لا أستطيع أن أقول في العلن، إنني أكتب حتّى تحبّني شريكتي بشعر جسمي، وبالشامة العظيمة التي عليه. أو إنني أكتب حتّى لا تنفر منهما، إنْ لم تحبيهما، زائرةٌ لفراشي.

لذلك أكتب، لا لشيء آخر. حتّى أنتصر على خجلي.

لكنّ جواباً مثلَ هذا مستهجن، ولا يناسب المتوقّع والمعهود. وليس جواباً مريحاً أو مفرحاً أو مفاجئاً أو ما شاكل. إنّه جواب مزعج لا يحبّه عشّاق الأدب الجميل، بل يشعرون تجاهه كأنّ أحداً يبصق عليهم وسخ جوفه (أو وسخ جوفهم!) مستذكرين في ذلك قول من قال: «لو باح كلّ بما في نفسه لعمّت في الأرض رائحة لا تطاق».

وبعد بضعة أيّام، عادت معلّمتي بالحوار الذي أعطيتها إيّاه، مترجماً إلى العربيّة. فشكرتها مكرّراً لها عبارة Thank you مرّاتٍ عديدةً، أكثر من اللازم، إلى أن انتبهتُ أنّها تنظر إليّ بعجب شديد.

كنتُ أكرّر عبارات الشكر لمعلّمتي على جهدها واهتمامها، لكنّ الترجمة إلى العربيّة لم تكن همّي ولا مطلبي.

ثمّ فكّرتُ طويلاً في ما يجب عمله، لأنّني إذا ما بقيتُ على هذه الحال، فلن أستطيع التقدّم في فهم هذا الفيلم ولا في فهم غيره وحدي، فأنا بحاجة إلى مساعدة بلا أدنى ريب. فقلّبت الأمر على كلّ جوانبه، وأخيراً وجدتُ أنّ الحلّ بين يديّ، وهو سهل المتناول، فمعلّمتي تبحث عن عمل، وما عليّ إلاّ أن أطلب منها مساعدةً

إضافية بأجر إضافي، مقابل أن نحضر هذا الفيلم معاً، وأن يكون الحوار المكتوب أسفل الشاشة هو موضوع الدرس.

استطعت أن أوضّح لها قصدي، وإن بصعوبة بالغة، وأريتها غلاف الفيلم الذي أريد مشاهدته معها، وسرّني عندما فهمتُ منها أنّها سمعت به لكنّها لم تحضره. ووعدتها بأن أحضّر الحوار مسبقاً، وذلك بالبحث عن معاني جميع الكلمات، بما فيها تلك التي أعرف معناها مئة في المئة، وحفظها عن ظهر قلب، ثمّ محاولة فكّ رموز معاني الجمل.

اعترضت معلّمتي أوّلاً على اقتراحي، لأنّ هذه الطريقة لا تفيد كثيراً من الناحية التربويّة. والصواب في رأيها هو أن أتابع الدراسة بمستوى أقل بكثير من مستوى الحوار السينمائي المحكي. ثمّ قبلت عرضي، وإن بعد تردّد وبدون اقتناع.

تأكّد لي بسرعة من الجلسة الأولى ما فهمتُه من معلّمتي، من أنّ هذه الطريقة لا تجدي نفعاً، لكنّني في الحقيقة كنتُ بحاجة إليها، إلى معلّمتي، إلى أحد ما يقف إلى جانبي في هذه المعركة التي أخوضها ضدّ الطبيعة والنسيان، وضد تغيّر أهواء الناس والنساء بخاصة.

وبينما كنّا أنا ومدرّستي نشاهد الدقائق الأولى من الفيلم، وبينما كانت تشرح لي العبارات التي جاءت في الحوار وبخاصة الشرط وأصوله، إذا بهاتفي النقّال يرنّ، وكان المتّصل صديقي المحامي. أسكتُّ الرنين وحوّلت الهاتف إلى صامت دون أن أجيب، لكن بعد ثوانٍ رنّ هاتف البيت الثابت، فتركته يرنّ حتّى بدأ المجيب

الصوتي يعمل، لكنّ المتّصل أقفل الخط بلا أن يترك رسالة، ثم بعد لحظات رأيت شاشة الهاتف النقّال تضيء، علامةَ أنّ هناك اتصالاً، رأيت اسم المتّصل، هو ذاته الذي اتصل من قبل، صديقي المحامي، فلا بدّ إذن من أن يكون هو الذي اتصل بي على الهاتف الثابت. قلت إذن في الأمر ما فيه، حتّى يلحّ صديقي في طلبي هذا الإلحاح، فرددت.

ـ مات حسن! قال بدون سلام أو مقدمات. ثم كرّرها مرّة ثانية وثالثة:

ـ مات حسن!

لزمتني ثوانٍ طويلة حتّى أدركتُ من هو حسن، وحتى استوعبت الصدمة.

ـ قُتل؟ سألته عفواً. إذ عادةُ الناس الأصحّاء والمرضى في هذه الأيّام أن يموتوا بانفجار سيّارة مفخّخة أو اغتيال سياسي أو قصف إسرائيلي.

كان صديقي المحامي يبكي على الهاتف، فانسحبتُ إلى غرفة نومي وأغلقت بابها عليّ، ورحت أبكي معه، تاركاً المدرّسة تتابع وحدها الفيلم، ثم بعد وقت طويل، عشر دقائق ربّما، عدتُ إلى الصالون واعتذرت من المدرّسة عن هذا الغياب، محاولاً عدم النظر إليها مباشرة لئلاّ تلاحظ أثر الدموع في عينيّ، لكن كان من المستحيل ألاّ تلاحظ، لأنّ شقّتي ينيرها ضوء النهار جيداً كأنّنا في الخارج، ثمّ إنّني أثناء الدرس أفتح كلّ البرادي، حتّى ينفجر البيت بالضوء، لأنني لا أريد أن أقوم بأي عمل يمكن أن تفسّره مدرّستي تفسيراً غير مناسب. أريد منها أن تعلّمني الإنكليزيّة ولا شيء غير الإنكليزيّة.

والحقيقة أنّني شخصيّاً أحبّ الضوء، وقد تنازلتُ عن أشياء أثناء قسمة تركة والدي حتّى أحصل على هذه الشقّة. أحبّ الضوء ويزداد حبّي له مع الأيّام، ومع التقدّم في السنّ. وكان حسن يحبّ شقّتي كثيراً بسبب الضوء فيها وشدّة الوضوح. كان نظره يصعب كثيراً في العتمة، وكان يقلق لذلك ويعتكر مزاجه. وكان يردّد دائماً: العتمة قبر!

(والدتي كذلك تكره البيوت المعتمة أيضاً وتكره الأشجار. لأنّ الشجرة تسدّ الأفق.

كنّا نقيم في الطابق الثاني، وكان على الرصيف شجرة بلغت شبّاك الصالون، فأصيبت والدتي بالهلع، خوفاً من أن تحجب هذه الشجرة الرؤية عنها، وراحت تخطّط للتخلص منها، أو الانتقال إلى بيت آخر، لولا أنّ الصدفة شاءت أن تُقطع هذه الشجرة، بسبب إصلاح الرصيف وتمرير قنوات تحته.)

نظرتْ معلّمتي إليّ نظرة خاطفة لكن بدهشة، وبدت عليها الحيرة، فطلبتُ منها إيقاف الدرس وتأجيل مشاهدة الفيلم إلى المرّة القادمة. وانصرفتْ ولم أكن أكيداً من أنها ستعود، لأنّ التدريس لا يكون بينما التلميذ يريد حرق المراحل بهذا الشكل الملحّ المستعجل، وبسلوك غريب لا يمكن فهمه.

وانصرفتْ بدون أن تقول كلمة أو تسأل سؤالاً، وبدون أن تعرف ماذا جرى لحسن ومن هو حسن، وكم كان يتابع أخبار تطوّر الطبّ، ومفعول الأعشاب الطبيّة، وأثر بعض الحشائش على الذاكرة. ولم تعرف هذه السويدية أنّ حسن هو الذي أخبرني أنّ ثمانين في المئة من النساء لا يبلغن أورغاسمهنّ إلاّ «من برّه» وأنّ

عشرين بالمئة فقط منهنّ يبلغنه «من جوّا»! ولن تعرف أنّه أخبرني ذلك، لأنّني لا أريد أن أدخلها في أموري الخاصّة، وهي بالتأكيد لا تريد أن تتدخّل في أموري الخاصّة، بدليل أنّها لم تُبدِ أيّ رغبة في ذلك، ولم يصدر عنها أيّ إشارة تنمّ عن ذلك، لحسن حظّي.

أحسّ حسن برغبة قويّة في الضوء، رغم أنّ شقّته كانت مضاءة جيّداً بضوء النهار، لكنّه رغب في المزيد منه، فخرج عند العصر ولم يعد إلى بيته.

لم يمت حسن بالقصف الإسرائيلي في حرب تمّوز، الذي بدأ بعد موته بأيّام، ولم يمت بانفجار سيّارة مفخّخة، كما كان يحدث لكثيرين قبل وفاته، وقد تكرّر حدوثه بعد وفاته، ولم يمت اغتيالاً كما كما كان يحدث قبل وفاته وبعدها، بل مات بعدما أحسّ برغبة في مزيد من الضوء، وانفجر قلبه فجأة ومات.

يكبرني حسن بسنتين أو ثلاث، وينتظر بفارغ الصبر أن يبلغ سنّ التقاعد من تدريس الأنتروبولوجيا في الجامعة، حتّى يتفرّغ إلى ما يحبّ: الأسرار!

كانت مدرّستي تشرح لي الشرط بالإنكليزيّة عبر كلمة would الواردة في الفيلم على لسان الكاتب الروائي بندريكس المتيّم بحبّ ساره زوجة هنري، والمريض بالغيرة من عشّاقها المحتملين.

كانت تقول لي: تذكّر ما تعلّمناه الأسبوع الماضي.

علّمتني الأسبوع الماضي حالات الشرط، وركّزتْ على استعمال would وما زلت أتذكّر ذلك، لكن هذا الاستعمال الوارد هنا في

الفيلم هو الشرط بالنفي وليس بالإيجاب، وأذكر أن مدرّستي لم تعطني أمثلةً كثيرةً على استعمال الشرط بالنفي، لأنّ الأمثلة في الكتاب كان أغلبها بالإيجاب لا بالنفي. ثمّ إنّ استعمال الشرط هنا شديد التعقيد ويجب تأويله من أجل فهمه تأويلاً خاصّاً.

ثمّ إنّني نسيت في الواقع ما تعلّمته الأسبوع الماضي ولم أعد أذكر منه إلاّ القليل، ولم أعد أذكر إلاّ أنّني تعلّمتُه. وهنا تساءلتُ: ماذا كان نفع حسن لو أنّه تعلّم الإنكليزيّة في الستين من عمره، أي قبل بضع سنوات وحسب؟ ماذا كان نفعه الآن، وقد توقّف قلبُه فجأة عن النبض وهو يتمشّى العصر في أحد شوارع بيروت، وسيدفن تحت التراب بعد ساعات؟

ولكنني انتبهت إلى أنّ حسن كان يعرف الإنكليزيّة جيداً منذ صغره. وهو الذي كان يقول لي دائماً إنّ جهل الإنكليزيّة اليوم نقص فظيع، لأنّ «نموّها» (هذه كانت كلمته) عائد إلى «جينة» معدّلة فيها، وليس عائداً إلى قوّة أميركا الاقتصاديّة كما قد تظنّ. هنا رويتُ له ما قاله لي مستشرق ألماني التقيتُه في بيروت عن اللغة الألمانية، قال إنّ الإنكليزيّة لغة سهلة لذلك يتعلّمها الناس، بينما الألمانيّة لغة صعبة جدّاً لذلك لا يتعلّمها الناس، فأجبته بأنّ هذا الرأي خاطئ بالتأكيد، إذ ليس هناك من لغة سهلة ولغة صعبة، واللغة قد تكون قريبة من لغتك الأم فتسهل عليك أو تكون بعيدة عنها فتصعب عليك، ثم إن اللغة الإنكليزيّة منتشرة في كلّ مكان وما من أحد في العالم أمّيّاً كان أو متعلّماً إلاّ تآلف مع أحرفها وأسماء فيها وكلمات منها وتراكيب. ما من لغة، قلت له، صعبة في ذاتها أو سهلة في ذاتها.

أنا «إنسانيّ» بطبعي، وأؤمن بالمساواة في الجوهر ما بين الظواهر

الإنسانيّة. ولا أتحمّل أن يقول أحد إنّ هناك لغة أسهل من لغة أو أفضل من لغة، وأغضب كثيراً حين يُقال إنّ العربيّة صعبة والإنكليزيّة أسهل منها بكثير.

لكنّ حسن لم تكن له النظرة ذاتها إلى الموضوع، بل كان يرى أن اللغة جسم حيّ مؤلّف من خلايا حيّة يمكن تعديل جيناتها كما النبات. وقد عُدّلت إحدى جينات الإنكليزيّة بالفعل، وهذا هو سرّ نموّها ولا شيء غير ذلك. كان حسن يعشق الأسرار.

ثمّ استدركتُ وقلت إنّ تساؤلي عن نفع إتقان حسن الإنكليزيّة الآن لا معنى له وليس في محلّه. إذ لا شيء ينفع حسن الآن، لا ينفعه أن يكون قد أكل ولا ينفعه أن يكون قد شرب، ولا شيء... فما عليّ إذن إلاّ أن أتخطّى سريعاً وقع الحدث مهما يكن مؤلماً، ومهما يكن باعثاً على الحزن والكآبة. يجب أن أتخطّى وقع المفاجأة لئلاّ يتحوّل شعوري بالكآبة إلى شعور بالإحباط، لأنني في هذه الحال سأضطرّ إلى شرب حبّة «ليكسوتانيل» يوميّاً، وهذا ما سيؤثّر على ذاكرتي وعلى قدرتها على حفظ ما أتعلّمه.

على الإنسان أن يتصرّف كأنّه يعيش أبداً! وعليه أن يتصرّف كأنّ الحاضر هو الزمن.

الحاضر دائم! هذا ما يجب أن يكون عليه شعاري. الحاضر هو الوقت. وهذه يجب أن تكون الحكمة التي تنير لي دروب حياتي، والتي يجب أن تحكم خياري عندما تتعدّد المفارق.

ليت النسيانَ داءٌ يشفي منه دواء!

لكنني في الحقيقة لست بحاجة إلى أن يكون النسيان مرضاً وأن يكون له دواء، فهامة دواء الزمن المتقدّم. ألست أستمد الطاقة منها لأستمرّ؟ أليست هي التي تسقي ذاكرتي بالماء الضروريّ لتنتعش وتبقى أغصانها طريّة.

ـ لم تعد الحياة تستحق هذا الجهد! هذا ما يقوله لك الكبار والصغار (يقولونها بالمحكيّة طبعاً: «ما بقى تحرزا!») والصغار بالأخصّ، فإنّهم يتعجّبون عندما يسمعون أنّ رجلاً في الستّين، يتعلّم الإنكليزيّة بشكل جدّي.

ـ لا تنصت إليهم! يقول لي الدكتور أسعد خيرالله!

أتعرّض أحياناً لهزء الناس. وهو أمر يلامس حدود الاحتمال.

ـ بليز! بليز! بليز! قال لي الكاتب الأميركيّ الذي جمعني به مؤتمر عن الأدب والعولمة. كرّرها ثلاث مرّات، وهو يضع يده على فمه، ليفهمني بالإشارة ما يقصد، فربّما لم أفهم بالكلام.

كنتُ أخاطبه بالإنكليزيّة، فأراد أن يسكتني، لأنّه ادّعى أنّه لم يفهم منّي شيئاً. لكنّه لم يساعدني لأفهمه شيئاً ممّا أردت قوله، وما أردت قوله كان بسيطاً جدّاً وكان سهلاً عليّ، لكنّ صبره نفد من طول انتظاره لي وأنا أحاول أن أتذكّر الكلمات. معلّمتي تفهم مني كلّ شيء لأنها تصبر ولأنّها طيّبة ومتواضعة، لكن هذا الكاتب الأميركي لم يصبر.

أسكتني ابنِ الكلب وكأنني ابنه، فأدرتُ وجهي عنه، وجاءني أن أكتب مقالاً أقول فيه ما يأتي:

«أيّها الأمريكان والإنكليز معاً، ستدفعون ثمن عذابي غالياً. وإنّ لَهذا الذلُّ الذي أُذَلُّ سيكون ويلاً عليكم ووبالاً.

أيّها الأمريكان والإنكليز معاً، تفرضون علينا لغتكم، ولا نستطيع إلاّ أن نقبل بهذا الفرض والإجبار، لكن اعلموا أننا لن نقول بها إلاّ ما نشاء، ولن نقول بها إلاّ أنفسنا، وسنعرفكم بمعرفتنا للغتكم لننال منكم، ولن تعرفوا شيئاً منّا. ولن تتمتّعوا بجمال لغتنا وعذوبتها وسلاستها وغناها، ولن تتمتّعوا بسماويّتها، ولن يكون لكم هذا الامتياز. والأهمّ الأهمّ من كلّ هذا، أنّكم لن تستطيعوا تمزيق لغتنا كما نمزّق لغتكم. إننا نشرشح لغتكم أيّما شرشحة! لن نتكلّم لغتكم بلغتكم، بل سنتكلّمها بلغتنا وبلهجاتنا، وكذلك سيفعل جميع الشعوب الذين تفرضون عليهم لغتكم.

أيها الأمريكان والإنكليز معاً، لا يجهَلَنّ أحد منكم علينا! ليست لغتكم التي لا قاعدة لها سوى الشواذ، هي التي تفرض نفسها علينا وعلى العالم، بل مصانعكم ودبّاباتكم وطائراتكم وصواريخكم، وليست لغتكم، التي لا يُقرأ فيها حرف بالطريقة ذاتها في مكانين مختلفين، هي التي تفرض نفسها علينا وعلى العالم، بل قدمكم الهمجيّة!

أيتها العربيّة الجميلة!

يا مريم اللغات!»

لكنّني بعد أن استعدتُ أنفاسي قليلاً وتغلّبت على غضبي، قلت في نفسي: هذا الكمّ من التعصّب القوميّ كثير عليّ! وأنا طوال عمري لم أكن قوميّاً متعصّباً ولا عنصريّاً. وأنا دائماً أقول إنه ليس هناك لغة أفضل من لغة في الجوهر، واللغة العربية كانت يوماً لغة

الديبلوماسيّة في العالم أجمع، وقد سمعت من أحدهم يقول إنّ مساعد كريستوف كولومبس عندما نزل على سواحل ما حسبها يوم ذلك الهند، ألقى خطاباً للهنود الذين تجمهروا أمامهم بالعربية! (الدنيا دولاب!)، ثم انتبهتُ أيضاً إلى انّ العربية لغة يفخر بها مئات الملايين من البشر من كلّ الأجناس والأعراق والألوان، ويعتبرونها بابهم إلى السعادة الأبديّة. ونحن أبناء العربيّة نفخر بذلك فوق فخر الفاخرين!

المشكلة على كلّ حال ليست في هذا الآن.

وتذكّرت هنا ما قاله لي مرّة صديق أميركي، أستاذ في الأدب المقارن، وقد جاء إلى بيروت وأقام فيها عدّة أشهر ليتعلّم العربية، قال لي على سبيل العتب والشكوى، إنّ كلّ ما تعلّمه في الجامعة من الفصحى لم يصلح له في حياته العملية في بيروت، ثم إنّه حيثما يذهب يُوجّه إليه السؤال نفسه:

You are from where? You like Lebanon?

قال إنّه حيثما يحلّ في البلاد العربية يواجَه بالإنكليزيّة وأحياناً قليلة بالفرنسيّة. قال إنّه لا شكّ فخور بأنّ لغته ولغة بلاده وقومه حاضرة أينما كان في هذا العالم الواسع، «لكنني في الوقت نفسه أريد، إذا ما سافرتُ، أن أشعر بأنني في مكان آخر مختلف. حين أخرج من أميركا الآن أشعر كأنّني أحمل قسماً منها على ظهري وأتجوّل به أينما ذهبت.».

قال لي إنّه يعجب الآن، عندما يرى سيّدات يرتدين الحجاب، ويتكلّمن الإنكليزيّة كالأميركيّات. قال إنّه في الماضي، كانت

الإنكليزيّة خاصّة بالمثقين والمثقّفات وحملة الشهادات، الذين كانوا ينظرون إلى الغرب كنموذج يجب أن يُحتذى وإن لم يكن صديقاً، لكنّها اليوم صارت «شعبيّة» يتقنها أناس من كلّ الفئات.

قلت له صحيح! معك حقّ! ففي الماضي كنّا نادراً ما نرى امرأة محجّبة يلعلع لسانها باللغة الإنكليزيّة، وذلك بخلاف اليوم. هذا حقّ الحجاب في اللغات العالميّة!

(ثمّ، ومن باب ترادف الأفكار، تذكّرتُ ما أخبرني به صديقي الشاعر والصحافي عبّاس بيضون، قال إنّه التقى بصحافيّ ألماني، في أحد المؤتمرات التي تُعقد باستمرار عن العولمة، فأخبره هذا الصحافيّ أنّه زار بيروت لتغطية مؤتمر صحافي عقده مواطنه الألماني ديتريش ميليس، المحقّق الدولي في عملية اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وأخبره أنّه تجوّل بهذه المناسبة في بيروت، ورأى ما أدهشه، وهو أنّ سيّدات محجّبات يأكلن الهمبرغر في محلاّت الوجبات السريعة.

كنّا نتمشّى على شاطئ البحر، على الكورنيش، عندما كان عبّاس يخبرني ذلك، فضحكت وضحك وعلّق قائلاً: كان عليه أن يأتي إلى هنا ليشاهد كيف تُعانق المحجّبات عشّاقهنّ وخاطبيهنّ وأزواجهنّ، في هذا المتنزّه الذي يعج بالناس.)

تسألني معلّمتي على الدوام: فهمت؟

نعم يا معلّمتي! لقد فهمت، وقد فهمت جيّداً جدّاً! بل إنّني أفهم فوق فهم الفاهمين، لكنّ المسألة ليست في الفهم يا معلّمتي، بل في المحافظة على ما فهمت.

بعدما تحقّقتُ من أنّ محاولاتي تسريع عمليّة التعلّم لا تجدي نفعاً، قرّرت أن أنفّذ ما خطّطت له، أي الذهاب إلى الولايات المتّحدة والإقامة فيها عدّة أشهر لأتمرّس ما أمكن باللغة الإنكليزيّة. لأنّني تحقّقتُ بعد هذه الأشهر من الدراسة بهذه الطريقة أنّني لا أتقدم بالسرعة التي أرجوها. وقد اخترت الولايات المتحدة دون غيرها، لأنّ أخت معلّمتي وزوجها، مستعدان لاستقبالي دون مقابل. لكنّ الدخول إلى الولايات المتّحدة، بعد الحادي عشر من أيلول، لم يعد بالأمر السهل لعربيّ مثلي واضح الأنف، أنوف (وقعتُ على هذه المفردة أوّل مرّة في صيغة الجمع، في بيت من قصيدة للأخطل يمدح فيها بني أميّة:

حُشُدٌ على الحقّ، عيّافو الخنا، أُنُفٌ
إذا ألـمّـت بهـم مكـروهـة، صبـروا

ورسخت في ذهني.)

لكنّ عزمي على تحقيق حلمي في فهم وجدان هامة، ورغبتي العميقة في استردادها، لا تنال منه صعوبة. فجمعت كلّ الأوراق المطلوبة، وأعددت طلباً كاملاً لا ينقصه شيء، وقدّمته إلى السفارة الأميركيّة في منطقة «عوكر» في ضاحية بيروت الشماليّة.

الذلّ! هذا ما يلاقيك عندما تقدّم طلباً للحصول على فيزا من السفارة الأميركيّة في «عوكر» ضاحية بيروت الشمالية.

ـ لماذا تريد فيزا إلى الولايات المتّحدة؟

ـ لأتعلّم الإنكليزيّة؟

أردتُ أن يكون جوابي شديد الوضوح وصادقاً.

ثمّ جاءني الجواب بالرفض فحزنتُ. وقرّرت ألاّ أستسلم لأحد أو لقوّة في العالم، ولو كانت هذه القوّة أميركا. وقرّرت أن أحاول الذهاب إلى لندن بدل أميركا، وإن اضطّرني ذلك إلى استنفاد كلّ ما ادّخرتُه لدفع تكاليف الإقامة والمدرسة.

وحزنتُ.

واشتقتُ إلى هامة وافتقدتُها، كما أفتقدها دائماً في الأوقات الحرجة، لأنّها كانت محاوراً رائعاً، وناصحاً رائعاً، وعزاء لا بديل منه في ساعات الفشل والحزن والصدمات. فكم وددتُ أن أخبرها عن سلوك الموظّفين في السفارة الأميركيّة، ورفضهم منحي تأشيرة دخول! وكم وددت أن أسمعها تواسيني بصوتها العذب المهدّئ للأعصاب.

أستطيع من حيث المبدأ أن أتصل بها وأن أخبرها برفض السفارة الأميركيّة إعطائي فيزا، فما زلت أحتفظ برقم هاتفها، لكنّني عاهدت نفسي على ألاّ أتصل بها إطلاقاً، رغم أنّها لا زالت تتصل بي من وقت إلى آخر للاطمئنان، لكنّ هذا الاتصال لا يدوم سوى لحظات. يرنّ الهاتف ويظهر اسمها على الشاشة فأتردّد قبل أن أجيب:

ـ آلو

ـ هاي حبيبو!

ـ هاي

ـ شو أخبارَك؟ كل شي منيح؟

ــ كل شي منيح

ــ كل شي تمام؟

ــ تمام

ثم نصمت لحظات مليئةً بالحرج والاضطراب والانزعاج وما إلى ذلك، ثم تُنهي مخابرتها قائلةً:

ــ أوكّي باي

فأجيبها:

ــ باي

وينتهي الاتصال هكذا بدون أن أخبرها شيئاً وبدون أن تخبرني شيئاً.

لم نتبادل أيّ خبر خلال الاتصالات الأربعة أو الخمسة التي أجرتها معي للاطمئنان منذ افترقنا، لذلك لا أعلم عنها شيئاً.

لم يبلغني خبر منها منذ أن هجرتني، أي منذ ما يزيد على ستة أشهر أو سبعة، لا مباشرة ولا بالواسطة. ولا أظنّ أنّ خبراً بلغها عنّي طوال تلك المدّة، وهي لا شكّ لا تدري بحالي، ولا تدري بشيء عنّي، إذ لا أصحاب مشتركين بيننا، ولا زملاء عمل ولا أهل ولا أقرباء، وقد جمعتُها مرّةً بأختي غوى لكنّ التيّار لم يجر بينهما للأسف الشديد. لم يتحابّا. وهي لا تقرأ عنّي في جريدة، لأنني لست من الكتّاب النجوم الذين تكتب الجرائد عنهم، ولا هي تقرأ جريدةً على كلّ حال، وإن اطّلعتْ على الأخبار فمن الـ «سي إن إن» أو الـ «بي بي سي» أو «الأورونيوز» تسمعها بالإنكليزيّة، أو من محطّة فضائيّة عربيّة، وهذه المحطّات جميعها لا تذكر شيئاً عنّي

بالطبع، فمن أنا لتذكرني؟

أحلم أحياناً أنّ هامة جالسة أمام الـ «سي إن إن» ذات مساء لتشاهد نشرة الأخبار، كما تفعل أحياناً، وإذ الخبر الأوّل عنّي:

ـ الكاتب اللبناني حبيب...

ثمّ،

ثمّ ماذا؟

أعجز عن تصوّر تكملة للخبر، لكنّني أتصوّرها تستدير عيناها من الدهشة وهي تتأمّل في الشاشة، وأتصوّرها تتناول الهاتف وتتصل بي...

نعم، أحلام أطفال!

أعرف طريقةً عظيمة تجعل الـ «سي إن إن» تتكلّم عنّي: أبعث إلى الصحافيين برسائل مغفّلة، لا شيء يشير فيها إلى كاتبها، وأخبر فيها أنّ حدثاً عظيماً سيقع في ساحة النجمة، أمام مدخل مبنى البرلمان بالذات، عندما تكون لجنة الحوار مجتمعةً، ويكون حاضراً فيها جميع ممثّلي الفئات والطوائف اللبنانيّة من الصفّ الأوّل، ويكون موضوع الجلسة «سلاح المقاومة»، وتكون الصحافة العالمية كلّها في المكان منتظرةً مقرّرات المجتمعين وما توصّلوا إليه، وأذهب إلى هناك في الموعد الذي حدّدتُه في الرسالة، وبيدي قنينة مياه معدنيّة صغيرة، علامة أنّي لا أنقطع عن شرب الماء لأنّني شديد الاهتمام بصحّتي، وتحت قميصي يافطة من قماش بطول فتحة ذراعيّ الإثنتين، مكتوب عليها ما يأتي:

لأنّ كتبي لا تلقى الاهتمام الذي تستحقّه!

وعندما أبلغ مقهى ومطعم النجمة أدخل إليه وأصعد إلى التواليت في الطابق العلوي، حيث أكون خبأتُ مسدّساً في علبة مياه المرحاض، الليلة السابقة بعد انتهاء اجتماعات لجنة الحوار وإزالة الحواجز والتدابير الأمنيّة المشدّدة.

أُخرج المسدس من كيس البلاستيك المحكم الإغلاق وأصليه، وأضعه في خصري تحت قميصي وأخرج اليافطة، وأنزل إلى وسط ساحة النجمة مقابل مدخل مبنى البرلمان، حيث تكون جميع وسائل الإعلام العالميّة والمحلّية مستنفرة استعداداً لخروج المجتمعين. أرفع اليافطة بيديّ الإثنتين، وأطلق طلقة واحدة من المسدس الذي يكون في يدي اليمنى. طلقة واحدة فقط للفت الانتباه. وبعد أن أُحرّك اليافطة يميناً ويساراً، بضعَ ثوانٍ أحسبها كافيةً حتى تلتقطها آلات التصوير، أرميها إلى الأرض وأُطلق النار مرّة واحدة فوق رؤوس الجنود المندفعين نحوي للقبض عليّ، ثمّ أطلق النار على رأسي.

كلّ هذا لتتّصل بي هامة وتسأل عنّي. ولكن بماذا أجيبها بعد أن أكون انتحرت؟

لذلك يجب أن أقوم بعمل يكون له على هامة أثر الانتحار، بدون أن يكون انتحاراً.

مثل ماذا؟

أحياناً تلفظ خطأً وأنت تقرأ بصوت عالٍ فتقول «كاونتري» بدل «كانتري» ويصحّح لك من معك قامعاً ضحكته لشدّة ما هو

مهذّب ودقيق وحسّاس لا يجرح شعور أحد.

وأحياناً تظنّ أنّك فهمت، وأنت لم تفهم.

وأحياناً تريد أن تقول عبارةً بسيطةً جدّاً جدّاً مثل: «أكبر من هذا بمرّتين» فتعجز. فكيف تستطيع أن تحزر أنّها: Twice this big

بل بالأحرى كيف تستطيع أن تتذكّر؟

كيف تستطيع أن تتذكّر الفرق بين take over و take off وtake on في كلّ لحظة من لحظات العقد السابع من العمر المديد؟

لقد تعلّمتُ عبارة sore throat أخيراً وحفظتها، لكن لم يتسنَّ لي استعمالها لأنّ حلقي لم يعد يؤلمني فنسيتُها! ولمّا احتجتُ إليها كان من المستحيل عليّ أن أتذكّرها.

ويجب أن تقول I have a headache وأن تقول I have a toothache ويجب أن تقول my arm hurts

إيّاك أن تقول my arm hurts me! لئلا يضحك عليك الأولاد، وصبية الأزقة.

ويجب أن تقول I am in pain

هذا الكمّ من المفردات! ثمّ هذا الكمّ من العبارات الجاهزة، التي يجب عليك حفظها ولا شيء غير حفظها وبدون تفكير، لأنّك ما إن تُعمل فكرك فيها تبطئ!

يجب أن أمارس الإنكليزيّة يوميّاً، وليس هناك من حلّ آخر لتثبيت

ما أتعلّمه في ذهني إلاّ السفر. يجب أن أحاول الحصول على فيزا إلى لندن. فهل تزداد حظوظي في الحصول على الفيزا، إذا ما ادّعيتُ في السفارة البريطانيّة أنّني اخترت لندن لأنّني أفضّل الإنكليزيّة الإنكليزيّة على الإنكليزيّة الأميركيّة. أتساءل عن ذلك لأنّني أسمع أنّ بعض الإنكليز يكرهون حتى الغضب طريقة استعمال الأميركيّين لما يعتبرونه لغتهم، ويكرهون طريقة نطقهم لها بشكل خاص.

كنت أسعى إلى ذلك عندما اتصلت بي أختي غوى هذه المرة لتشكو لي الصعوبات التي تعانيها من اهتمامها بوالدتها بمفردها. كنتُ أستحصل على الأوراق الضرورية لإكمال طلب الفيزا إلى لندن. وكنت في الوقت نفسه أدرس خمس مرّات في الأسبوع وأشاهد مقاطع من فيلم «نهاية العلاقة» مع معلّمتي.

وكانت أختي لا تتصل بي في العادة إلاّ مرّة كلّ شهر أو شهرين، من باب رفع العتب ليس إلاّ، أو بعد إلحاح والدتي عليها، لكنّ اتصالاتها صارت تزداد منذ بدأت ذاكرة والدتي تسوء، وصرتُ أتشاءم كلّما رنّ جرس هاتفي ورأيت اسمها على الشاشة.

صارت تريد منّي فجأةً أن أشاركها كلّ شاردة وواردة تعني الوالدة، وأنا جاهل في هذه الأمور، ولست قادراً على إبداء رأي مفيد، أو تقديم نصيحة صالحة.

لا تعرف أختي ما معنى أن تكون كاتباً حالماً بالنجاح، وساعياً إليه.

واشتعل غضبي هذه المرّة حين اتصلت بي لتبادرني بالقول، مرّةً

أخرى أيضاً، إنها لم تعد تستطيع أن تتحمّل هذا الوضع، وإنّها تريد لذلك نقل والدتها إلى مأوى.

ماذا تريد منّي الآن أختي؟

وقالت لي بوضوح وبلا لفّ أو دوران:

ـ أنا مهتمّة بالوالدة وأنتَ غارق حتّى أذنيك... وفي هذا العمر!

أنا غارق في حبّ هامة وهذا لا يليق بسنّي! وإنّي مهمل أمّي بسبب هذا التصابي! هذا ما تريد قوله.

تغار منّي أختي غوى بلا أدنى شكّ، لأنّها لا تشبع ولا ترتوي!

فاشتعلتُ، اشتعلتُ غضباً!

يا إلهي إن كنتَ تنصت إليّ فسامحني، لأنني كلّما أثارت أختي موضوع والدتي مشتكيةً من تحمّل المسؤولية بمفردها، لا أستطيع أن أنسى أنّ والدتي كانت لها السند الذي لا يقدّر بثمن. كانت والدتي تنتقل إلى شقة أختي وتهتمّ بأولادها، وكانت أختي تنتقل إلى شقّة والدتي وتستقبل رجلها هناك، أو رجالها (الله أعلم!) بينما كان زوجها يعمل في حرّ الخليج، معتبراً أنّ قيمته في عين زوجته ترتفع، كلّما ارتفعت حرارة الصحراء هناك، وكلّما صعب العيش فيها.

زوج أختي كالأزواج الآخرين، يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنّه كلّما ضحّى من أجل زوجته وأولاده ترسّخت سيادته على البيت، وترسّخ حقّه في وفاء زوجته له وفي إخلاصها، وأنّه كلّما احترقت رمال الصحراء بأشعّة الشمس اللاهبة، صار حقّه على زوجته أن يتحرّق قلبها لرؤيته ووصاله.

ومن الأزواج من يظنّ أن درجة البرد المتدنية جدّاً تحت الصفر في أعالي كندا، توجب التهاباً في عاطفة الزوجة المقيمة في شقّة مكيّفة، صيفاً شتاء، في بيروت.

وكم وددتُ، بيني وبين نفسي، أن أعرف أشياء عن علاقة أختي غوى بزوجها، وكيف تتصرّف عندما يعود إلى لبنان في عطلة، أو عندما تزوره (مرغمةً؟) في الخليج، وما هو شعورها نحوه، وعلى أيّ صورة يلتقيان في الفراش؟

لا شكّ أنها تتركه يفعل، متحمّلةً بصمت ثقلَ دمه، أو رائحة فمه، أو شيئاً ما فيه لا يُحتمل، ثمّ تشكو كلّ ذلك إلى عشيقها وهي بين ذراعيه.

يخبرني صديقي أياس أنّه على علاقة سرّيّة بامرأة متزوّجة (هو أيضاً متزوّج)، وأنّ هذه المرأة تخبره عن زوجها حين يعود كلّ شهرين أو ثلاثة من سفره حيث يعمل، ليمضي عدّة أيّام (فقط!) مع زوجته وأولاده:

ـ «كابوس»!

تقول هذه السيّدة لعشيقها أياس.

ـ اتصل بي «الكابوس» ليلة أمس، وسيأتي بعد أسبوع!

تخبر هذه السيّدة عشيقها أياس كيف تترك نفسها لزوجها، بعد أن تكون قد تناولت حبّة «ليكزوتنيل» مهدّئة للأعصاب فلا تشعر بعدها بشيء.

ـ يتمدّد فوقي ويغرز نفسه فيّ. هذا كلّ ما يفعله بي. يحاول رفع

ثيابي عن صدري فأرفض بقوّة، لأنّني لا أستطيع تحمّل ذلك. وحين يقهرني ويبلغ ثديي أشعر كأنّه يريد أن يستأصل حلمته، فأفقد حينها أعصابي وأفقد كلّ سيطرة على نفسي، رغم حبّة «الليكزوتنيل».

وحين يبلغ لذّته ينقلب عنّي وينام دون أن يغتسل. وفي الصباح يفعل الشيء نفسه. لا ملامسة ولا مداعبة ولا كلمة حنان ولا اهتمام، كأنّه هو وحده من له جسد، أمّا أنا فلا. فبالنسبة إليه، هو يقوم بكلّ ما عليه فقط لأنّه يقدّم للعائلة ما يلزمها. هكذا ببساطة.

وهو فوق ذلك كلّه يشخر.

(لم تشكُ هامة يوماً من شخيري. كنتُ أعرف أنّني أشخر ليلاً أثناء نومي، وكنت دائماً أطلب منها وألحّ عليها ألاّ تتردّد في إيقاظي حين أزعجها بشخيري. مرّة واحدة فقط أيقظتني لأنّها كانت متوتّرة ولم تستطع النوم على هذا الشخير، فقمت فوراً وطوعاً ونمت في غرفة أخرى معتذراً.)

ـ لم يقبّلني مرّة واحدة منذ تزوّجنا حتّى الآن! تقول عشيقة صديقي أياس. لم يقبلني مرة واحدة في المكان الذي أُحبّ. تحت. (أفتقدك الآن يا حسن في هذه اللحظات الصعبة من حياتي. أنا بحاجة إلى معرفتك!) هذه الملامسة بالشفتين هناك «ما بين»، أسفلَ جسمي، هي أكثر ما أحبّ في اللقاء الحميم. لم يمسّني هناك مرّة واحدة بشفة أو بلسان أو بيد، بل أكثر من ذلك إنّه لم ينظر إليه مرّة واحدة، بل يشيح بنظره عنه إذا ما عرض له عفواً.

ـ أُقسم لك بما تريد أنّ ما أقوله هو الحقيقة.

وقالت أيضاً: أنا ليس في جسدي شامة إلاّ تحت، على شفة من شفتيه، حيث يوجد شامتان باديتان، وقد أحسستُ مرّةً أنّ واحدةً منهما تغيّر لونها قليلاً، فخفت أن يكون هذا التغيّر علامة سيئة، ونقلت له خوفي، وقلتُ له يجب أن أستشير طبيباً، وكان جوابُه أنّه فوجئ أن يكون لديّ شامتان:

ـ والله؟ عندكِ شامتان؟

وهما بارزتان لا يمكن ألاّ يراهما إلاّ إذا كان لا يرى بالمطلق. بينما هو يريدني دائماً أن أسجد لما بين فخذيه، وأن تكون شفتاي على ما بين فخذيه ألطف من رذاذ الماء يحمله نسيم عليل. أعرفه بقعة بقعة.

أمّا هو، فكان يغمض عينيه ويذهب فيّ كأنّما يذهب في دماغه، أو كأنّما يذهب في عتمة، ويروح كالخائف اللاهث يُعمل مجذافه جيئة وذهاباً، إلى أن يبلغ ضفّة السكينة والأمان.

لا أستطيع ردّ هذه الأفكار والخواطر التي صارت تجيئني عفواً، عندما تتّصل بي أختي غوى لتلومني، ولا أستطيع منع نفسي من اجترارها. ثمّ أندم. وكانت قبل أن تهجرني هامة إلى الرجل المناسب لا ترد على بالي بهذه القوّة وهذا الوضوح.

وأنا والحقّ يقال، لم أشكّ يوماً في هامة، ولا وثقت بها في الوقت نفسه، بل كنت خارج هذه الإشكالية ـ إشكاليّة الشكّ والثقة. لم يأت على بالي أن أشكّ يوماً أو أن أثق. كانت هامة وكنت أنا، والتقينا وأغرمتُ بها وأغرمتْ بي، ولا شيء سوى ذلك.

واستطاعت أختي أن تخبرني وهي تشهق بالبكاء، في اتصال هاتفي جديد لم تبدأه بلومي ولا بلوم إخوتي، أنّ أمّها أرادت الذهاب إلى الحمّام لتبول، لكنّها لم تستطع الوصول إليه في الوقت المناسب، فبالتْ في ثيابها! فاضطربتُ لهذا الخبر، لكنّني انتصرت سريعاً على اضطرابي، وقلت لها فوراً، وبدون أن أطلب منها المزيد من التفاصيل: لا تهتمّي ولا ينشغل بالك، فإنّ هذا يحدث للناس من كلّ الأعمار. وأخبرتها أنّ هذا حدث لي مرّة وليس من زمن بعيد (لم أقل لها: بعدَ أن تركتني هامة) كنت خارجاً من موعد، وكان الطقس بارداً، فأحسست فور خروجي بأنّي بحاجة إلى التبوّل، فالبرد مدرار للبول، ولكنني افترضتُ أنني قادر على الصبر عشر دقائق حتّى أبلغ بيتي، لكنّ الطريق كانت أطول بكثير من أن أستطيع اجتيازها في مدّة عشر دقائق وأنا حابس بهذا الشكل. كانت الدقائق العشر هذه تساوي دهراً. وقبل أن أبلغ المبنى الذي تقع فيه شقّتي، بدأت الأمور بالخروج عن سيطرتي، وبدأ البول يخرج رغماً عنّي وينساب مبلّلاً بنطالي وبالغاً جواربي. كان يخرج ساخناً ثم يبرد.

لكنّني لم أخبرها بكامل القصّة، وبخاصّة القسم المخجل منها، الذي لو أخبرتُها إيّاه لأخفت نفسها خجلاً منّي تحت سابع أرض. أختي غوى فخورة وتعزّ عليها كرامتها.

كان الموعد يومها مع صديقة لبنانيّة مهاجرة إلى أوستراليا، وكانت في زيارة إلى لبنان، وكنت دعوتها إلى غداء عندي مع بعض الأصدقاء. كانت هذه الصديقة أصغرَنا بكثير، وقد هاجرت مع والديها وإخوتها أثناء الحرب إلى أوستراليا، ولم تعد إلى لبنان منذ ذلك الوقت. اتصلتْ بي لتخبرني بقدومها وتواعدنا على أن نلتقي

في مقهى في شارع الحمرا. وبعد أن تحادثنا لساعة في المقهى، خرجنا معاً قاصدين بيتي. وبعد أمتار من باب المقهى، أحسستُ بأنّ البرد لفحني بقوّة، وأحسست فوراً بالرغبة في الذهاب إلى الحمّام، لكنّني قدّرتُ أنني أستطيع الاحتمال حتّى وصولي إلى البيت. ثمّ إنّني استصعبت أن أعود إلى المقهى وأن أترك هذه الصديقة وحدها تنتظرني على الرصيف، فرحتُ أسرّع خطاي، وكانت هي للأسف الشديد تتباطأ. قلت لها والوضع يتدهور بسرعة: علينا الوصول إلى البيت قبل المدعوّين. قالت:

ـ «بعد بكّير!».

وقالت إنّها اشتاقت إلى هذه الشوارع التي كانت تأنس إليها. وكانت قدرتي على استنباط الحجج لجعلها تسرع تتضاءل كلّما ألحّت عليّ الحاجة. كنت دائماً أسبقها ببضع خطوات، وكانت دائماً تتخلّف عنّي ببضع خطوات. ثمّ انكمش وجهها فجأةً وتوقّفت عن الكلام، كأنّها أرادت أن تبلغني بأنّني «بلا ذوق»، وبأنّني لا أقدّر مشاعرها ورغبتها في تأمّل هذه الشوارع التي كانت ترودها قبل سفرها. ثمّ بدأ البول ينساب، فركضتُ إلى البيت بعد أن قلت لها:

ـ الطابق الثاني، إلى يسار المصعد!

وحين بلغتُ المبنى لم أنتظر بالتأكيد حتّى يجيء المصعد، بل صعدتُ قفزاً إلى شقّتي. كنت خائفاً جدّاً من أن ألتقي بأحد من سكّان البناية، وقد التقيت بعدد منهم، وربّما ظنّ بعضهم أن شيئاً خطيراً قد حدث، لأنّ البلد في عين الإعصار، وقد بدا هذا الظنّ على أحد منهم لأنّ الدهشة بانت على وجهه.

وعندما رنّ الجرس بعد دقائق كنت في الحمّام، أغتسل. لزمني وقت قبل أن أفتح لها. كان وجهها متجهّماً ومتسائلاً. احترت في ما أجيبها. خفت أن تعتذر وأن تعود أدراجها. انتبهتُ إلى أنني غيّرت بنطلوني. ثم انتقلتُ إلى الكلام على وضعها في أوستراليا بفيض من الأسئلة. تغيّر الجوّ أخيراً لحسن حظّي. لكنّ شيئاً استجدّ في نفسها تجاهي ولن يتغيّر بالتأكيد. لا شكّ أنّها قالت في نفسها: دَبٌّ في حيب الخَرَف!

وقد وثّقت هذه الحادثة في حينه، لتكون جزءاً من ملفّ الدعوى إذا اقتنع المحامي بتبنّيها، لكنّني لم أخبره بها، ولم أخبر أحداً غيره. وها أنا الآن أخبر بها أختي غوى لأطمئنها إلى صحّة والدتي.

وبدل أن يطمئنّ بال أختي على والدتها، وهذا ما كنت أهدف إليه، انشغل بالها عليّ وعلى نفسها أيضاً. (أختي تكبرني بسنة وهذا ليس تفصيلاً!) وتساءلتْ عمّا إذا كان هذا «بالعيلة»، أي عمّا إذا كان وراثيّاً، وعمّا إذا كنّا سنصاب به جميعنا. فسكتُّ واحترت في الجواب، ثم استدركتُ وقلت لها بأنني ذهبت واستشرت طبيباً مختصّاً، بعد هذه الحادثة فوراً، وأنّ الطبيب كان حاسماً في تقديره لوضعي بأنّه سليم جدّاً، وذلك بعدما اطّلع على نتائج جميع الفحوص التي طلب منّي إجراءها، وكذلك على صور البروستات والمثانة وما إلى ذلك.

وفي غمرة هذه الانشغالات شنّت إسرائيل حرباً طاحنةً على لبنان، وقصفت المصانع ومطار بيروت والجسور الأساسيّة في كلّ لبنان، وأجلت الدول الأجنبيّة رعاياها عن بيروت في بواخر استقدمتها لهذا الغرض.

وقبل أن تقصف إسرائيل بيوم أو يومين هوائيّات الهاتف الخلوي وتنقطع الاتصالات، وصلتني رسالة من هامة على هاتفي الخلوي تقول فيها:

«أنا راحلة على باخرة إنكليزيّة إلى قبرص، ومنها سأذهب إلى نيويورك لأستأنف عملي هناك، لأنّ شركتي قرّرت إقفال فرعها في بيروت. قد أعود لفترة قصيرة إلى بيروت لإنهاء ما علي إنهاؤه. هامة».

هزّتني هذه الرسالة التي كانت صادمةً كقصف قريب والتي كانت الخاتمة الفعليّة لعلاقتنا. وحرتُ في الجواب. ثم بعد فترة من التفكير كتبت لها ردّاً مختصراً قلت فيه:

«أتمنّى لكِ التوفيق. أمّا أنا فباقٍ لأنّني لا أتحمّل أن أُدفنَ خارج لبنان. حبيب.»

لا أدري لماذا أجبتُها بهذا الكلام العاطفي جدّاً. والحقيقة أنّني كنتُ عاطفيّاً جدّاً أثناء تلك الحرب، وكنت أنفجر بالبكاء لكلمة أو لنسمة، وكنتُ خائفاً جدّاً على بيروت، ولذلك جننتُ حبّاً بها، ولم أستطع مغادرتها رغم ما كانت تتعرّض له من قصف شبه يومي لمدّة دامت أكثر من شهر.

لكن لا شيء يمنع الحياة من أن تستمرّ.

ولا شيء يمنع أختي غوى من الاستمرار في شكواها في اتصالها الذي صار شبه يومي. وقد أخبرتني هذه المرّة، أنّ الوالدة بدأت ترفض أن تأكل، وأنّه يجب إطعامها كلّ مرّة بالحيلة.

صدمني هذا الخبر بقوّة، وتملكني شعور مفاده أنّ النهاية دنت، وأنّ هذا هو القدر الذي لا مردّ له. فغضبتُ وحزنت في الوقت نفسه.

ثم حزنت حزناً عميقاً ولا زلت.

لكنّ أختي لم تترك لي أن أغضب بصفاء، ولا أن أحزن بصفاء، كما يحلو لكاتب أن يغضب وأن يحزن، وكما يحقّ له ذلك، بل أرادت ان تشركني في أمور وقرارات هي من واجبها أصلاً، لأنّها هي التي تمتّعت بوعي والدتها وعافيتها وحبّها واندفاعها، لا أنا. والآن عندما تناقصت والدتي وناصت صار عليّ أنا أن أتّخذ القرارات العمليّة والإجرائيّة. هذا ليس عدلاً.

(كنت أفكّر دائماً، كلّما اتصلت بي أختي، في وضع والدتي، وفي مشاعري تجاه أختي وفي مشاعرها تجاهي، وأتساءل في نفسي عن سبب هذا التوتّر الذي بيننا، وعمّا إذا كانت الغاية اللاواعية من غضبي عليها تناسي ما يحلّ بالوالدة؟

فهل نتقاتل فيما بيننا نحن الناس، لنتناسى الموت الذي يظهر أمامنا مقترباً منّا؟ وهل نختلف ونتخاصم عند موت الأهل والأقرباء، لننسى أنّ الخسارة عظيمة، ولنتناسى أنّ الموت بدأ يلامسنا.)

لكنّني في الحقيقة قلت في نفسي، تستحقّ والدتي منّي في أيامها الأخيرة، أن أكرّس لها ما يلزم من وقت، ومن مال أيضاً.

ـ يجب أن نجتمع قالت غوى، وأن نقرّر ما يجب عمله. وأختي تعرف ما يجب عمله بدون أن نجتمع، فهي أغنانا، وقد رزقها الله من المال ما يفيض كثيراً عن حاجتها، فما عليها والحال هذه إلاّ أن

تستخدم فتاة سيريلنكيّة أو حبشيّة أو فيليبينيّة، لأنّ خادمتها الخاصّة لم تعد تكفي لها ولوالدتها. وهذا كلّ شيء. خادمة لوالدتي بأجر يراوح ما بين المئة دولار أميركي في الشهر ـ إذا كانت المستخدمة عاديّة جدّاً ـ والأربع مئة دولار ـ إذا كانت المستخدمة ذات خبرة وثقافة عاليتين، وهذا كلّ شيء. فهل يمكن أن تكون أختي تريد أن نشاركها في المصاريف. على كلّ، لا مشكلة لديّ من هذه الناحية، فأنا في هذه الحالة مستعدّ أن أدفع ما يترتّب عليّ، وما يترتّب عليّ هو الخمس لأنّ عددنا نحن أولادها خمسة، وجميعنا يكسب عيشه وليس فينا من هو فقير أو معوِز، وإن لم يكن أحد منّا، باستثنائها هي، يملك ما يفيض عن حاجته.

قرّرنا أن يكون موعد الاجتماع في اليوم التالي على العشاء في منزلها.

لم يتغيّب أحد منّا.

وصلتُ باكراً وقصدتُ أوّلاً شقّة والدتي وسلّمتُ عليها وقبّلتها وقبّلتني، وقرصتني في خدّي كما كانت تفعل عندما كنتُ طفلاً، وعاتبتني على غيابي، ولمّا سألتها عمّا إذا كانت تعشّت، أجابتني بأنّها تعشّت!

قلت: متى؟

قالت: من زمان!

وكان وقت العشاء لم يحن بعد، فكيف إذن تعشّت من زمان؟ فحاولتُ إقناعها بأن تأكل فلم تقتنع، ثمّ طلبتُ منها أن تأتي وتجلس معنا لأننا كلّنا مجتمعون هنا عند غوى فقبلت أن ترافقني.

وفي الطريق ونحن نجتاز الفسحة ما بين شقّتها وشقّة أختي، طلبت منّي أن أعطيها يدي لتتكئ عليها، وكانت تفتش عند كلّ خطوة عن موقع قدم لها وتتأكّد من سويّته قبل أن تخطو، وعندذاك سألتها:

ألا ترين جيّداً أمامك؟

قالت: لا! لا أكاد أرى شيئاً في هذه العتمة!

وكانت لمبة الفسحة مضاءةً.

أجلسنا والدتي على رأس الطاولة، وهو موقعها المعتاد، وألححنا عليها لكي تأكل، لكنّها أكلت لقمتين فقط ولم تعد تقبل بغيرهما رغم كلّ حِيلنا، بينما كانت قبل هذه الفترة بأسابيع فقط لا تتوقّف عن الأكل متى جلست لتأكل، وكانت أختي غوى تحتال عليها حتّى تنهضها عن الطاولة.

ثمّ كانت تنظر إلى الواحد منّا وهو يحدّثها، وتتأمّله بعينين متّسعتين، لترى بأكثر ما تستطيع من الوضوح، أو بأقلّ ما يمكن من الغموض.

ثمّ كانت تشكو من العتمة:

ـ «شو هالعتمة!»

أحسستُ ووالدتي تقول ذلك، بأنّ العتمة الكثيفة لفّت قلبي وشدّت عليه، مانعةً إيّاه من النبض على هواه.

قالت غوى أثناء نقاشنا إنّها بعد التفكير في الأمر مرّة أخرى، غير قادرة على إرسال الوالدة إلى مأوى للعجزة، وإنّ مجرّد التفكير في

هذا الحلّ يقلب مزاجها رأساً على عقب. وقالت إنّ والدتنا إذا نقلناها إلى مأوى، تموت سريعاً من عدم التكيّف، ومن الشعور بالضياع والقهر والخيبة، لا من شيء آخر.

لذلك فإنّها اتفقت مع مكتب تأمين خادمات، على أن يستقدم لها خادمة فيليبينيّة حسنة السلوك وذات خبرة بالتمريض. وقد دفعت له ما يلزم.

وأخبرتنا أنّها في الاتصال الهاتفي الأخير، أكّد لها المكتب المذكور أنّه وجد خادمة بالشروط المطلوبة وهي ستصل بعد أيّام.

وعندما عدتُ إلى بيتي، آخرَ ذلك المساء، انفجرتُ بالبكاء.

كان عليّ مبدئيّاً في مثل تلك الليلة أن أحضّر درس اللغة الإنكليزيّة للغد، لكنّ معلّمتي لم تكن قد عادت من السويد منذ ترحيلها أثناء القصف الإسرائيلي، وذلك رغم انتهاء الحرب وبدء وصول قوات الأمم المتّحدة لحفظ السلام تنفيذاً للقرار ١٧٠١. فتناولتُ الكتاب وتأمّلته قليلاً ثمّ أغمضتُ عينيّ على ذكرى الدكتور هشام شرابي يقول لي: تصوّر نفسك في الخامسة والسبعين من العمر، وتصوّر نفسك تجيد الإنكليزيّة قراءةً وكتابة ومحادثةً، منذ خمس عشرة سنةً!

لكنّ هامة صارت الآن في نيويورك. وكتبتْ لي معلّمتي من السويد في رسالتها الأخيرة أنّها تفتّش عن عمل هناك، وكذلك زوجها، ونصحتني بمتابعة دراسة الإنكليزيّة حتّى لا يذهب التقدّم الذي أحرزتُه سدىً وحتى لا أنسى ما تعلّمتُه، وتمنّتْ لي التوفيق.

وازدادت وتيرة زياراتي إلى والدتي في تلك الفترة الأخيرة، وصرت أتصل بأختي دائماً لسؤالها عنها.

وكنت أتصل أيضاً بالخادمة، لأسألها عن الوالدة ولأنبهها بطريقة غير مباشرة إلى أنّها تحت المراقبة.

كنت في كلّ اتصال، أسأل الخادمة سؤالاً واحداً، مؤلّفاً من عدد يسير من الكلمات السهلة:

How is my mother?

وكانت تجيبني بكلمة واحدة سهلة: Good

حتّى صارت أخيراً تقول لي good ما إن تسمع صوتي.

وكان سؤالي باللغة الإنكليزيّة بالتأكيد، لأنّها لغة التواصل مع الخادمات الآتيات إلى لبنان من كل البلدان، مهما تكن معرفتهنّ بها في الغالب بدائيّة، كما هي الحال بالنسبة لخادمة والدتي التي عملت في السعوديّة مدّةَ سنتين عند عائلة إنكليزيّة رُحلت عن البلاد بسبب تكاثر عمليّات التفجير الانتحارية ضدّ الأجانب، بعد الاحتلال الأميركي الإنكليزي للعراق.

كنت خائفاً على والدتي من أن تسيء الخادمة معاملتها، كأن تضربها مثلاً إذا ما «أساءت» التصرف. أو إذا ما فقدت السيطرة على نفسها قبل أن تصل إلى الحمّام.

والله لو علمت أنّ الخادمة ضربتْها أو تعاملت معها بقسوة لتأنيبها على عمل قامت به، لظللت أضربها بما أملك من قوّة حتى تندم وتتعلّم.

واتصلت بي أختي مرّة، لتعلمني أنّها سمعت عن طبيب إيطالي شهير يزور لبنان الآن أنّه يستقبل المسنّين الذين يعانون من هذه الأمراض التي تعاني منها الوالدة. وقالت إنّها أخذت موعداً معه ليعاينها، رغم الأجر البالغ الذي يقبضه ثمناً لذلك.

ـ لكنّ هذا آخر همّي! أضافت.

وبعدما عاين هذا البروفسور الإيطالي والدتي طلب من أختي أن تُجري لها فحوصاً متعدّدة، وكان منها ما تطلّبت نتيجته أسبوعاً حتّى تظهر. وبعد أسبوع أخذتْ جميع هذه النتائج ليطلع عليها البروفسور ويقرّر ما يجب عمله. تعجّب البروفسور من أنّ سيّدةً في هذه السنّ لا شيء فيها يشكو من شيء، وكلّ ما فيها يعمل كما يجب، وأنّ النتائج جميعها في معدّلاتها، كنتائج الفحوص التي تُجرى للأطفال.

أخبرتني أختي كلَّ هذا على الهاتف وهي تشهق بالبكاء. وعلّقتْ بالقول:

ـ كلّ هذه الصحّة! ما نفعها؟

ثمّ بكت إلى أن استطاعت أن تقول:

ـ يا خسارة!

ثمّ أخبرتني أن هذا الطبيب صنع للوالدة بنفسه هرماً يشبه أهرامات مصر، ووضعه تحت فراشها ناحية رأسها، وذلك لأنّ الهرم يجذب إليه الطاقة الكونيّة التي تجعل الحياة تدبّ في الذاكرة من جديد، كالماء في العشبة العطشى.

قلت لها: إن لم تنفع هذه الحيلة فلن تضرّ.

وقصدتُ فوراً منزل والدتي لأعاين هذا الهرم تحت سريرها، ولأكون بقربها وأقبّل يديها، وأتعشّى معها وأحدّثها، كما كانت تحدّثني قبل انحدار وعيها. كانت تحدّثني سابقاً في أمور الأدب. لقد ورثتُ ذلك عن والدي.

لكنّ الخادمة اشتكت منذ دخولي من أنّ والدتي توسّخ ثيابها، وتوسّخ الأرض، عدّة مرّات في النهار.

(ـ كلّ هذه الصحّة! يا خسارة! قالت لي أختي وهي تشهق بالبكاء.)

واشتكت الخادمة من أنّه لم يُعلمها أحد بأنّ الأمر سيكون على ما هو عليه قبل استخدامنا لها، وقالت إنّها ليست ممرّضةً لتقوم بهذا العمل.

لا أعرف كيف فهمتُ كلّ هذا منها، لأنّها تتكلّم بإنكليزيّة على الطريقة الفيليبينيّة، مع أنّ أختي اشترطت على المكتب الذي استقدمها، أن تكون إنكليزيّتها جيّدة وذلك بإيحاء منّي، حتّى أمارس اللغة معها.

لكنّ أختي أكّدت لي أنّها صارحت مكتب الاستخدام بكلّ شيء، ولذلك فإمّا أنّ الخادمة تكذب، وإمّا أنّ مكتب الاستخدام هو الذي كذب عليها وغشّها. وكان رأي أختي أنّ هذه الشكوى ما هي إلاّ ابتزاز حتّى نزيد لها الأجر.

كنت في السابق، قبل أن تسوء حالة والدتي إلى هذا الحدّ، أذهب عندها لأحتال عليها وأطعمها، وكنت أجد متعةً هائلة في ذلك، وكانت تستقبلني قائلة:

ـ تعشّيت؟

وكنتُ أجيبها: لا لم أتعشَّ ولكن إذا كنتِ أنتِ لم تتعشي!

فتردّ عليّ:

أنا تعشّيت من زمان، لكنني أجلس معك لأحدّثك.

كنت أشعر بسعادة لا توصف عندما كنت أضع لها قليلاً من الأكل في صحنها، وأنجح في جعلها تأكله.

أقول إذن كنتُ في السابق أزورها لأطعمها وكنت أجد متعة لا توصف في ذلك، لكنّ الأمر اختلف الآن، بعدما تبينّ لنا أنّ كلّ هذه «الصحّة الجيّدة» لا تعني شيئاً، وأنّ الأكل لا يفيد وعيها ولا ذاكرتها بشيء، ولا يوقف التدهور. لذلك أجبتها هذه المرّة حين سألتني عمّا إذا كنت تعشّيت:

ـ بلى، تعشّيت!

وأنا لم أكن بعدُ تعشّيت.

ثم نظرتُ إليها والكآبة تدبّ في عظامي، وسألتها عمّا إذا كانت هي تعشّت، فقالت إنّها تعشّت من زمان، وإنّ وقت العشاء قد مضى، وإنّها لا تبقى حتّى هذه الساعة المتأخّرة من الليل بدون عشاء. وكان الوقت أوّل المساء.

ثمّ سألتُها قبل أن أخرج من عندها:

ـ ماذا تريدين أن تفعلي الآن؟

وتوقّعتُ منها أن تجيبني بأنّها ستذهب الآن لتنام، لكنّها أجابتني:

ـ ماذا تريدني أن أفعل في هذه العتمة؟

فسألتُها عندذاك:

ـ ألم يتحسّن نظركِ مع هذا الدواء الجديد؟

وكان جوابها كمطر من الخناجر:

ـ ما نفع نظري إن تحسّن الآن؟

وتساءلتُ وأنا خارج من عندها، إن كان يحقّ لي ألاّ أطعمها وهي بعدُ لم تأكل.

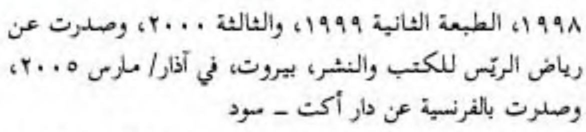
للمؤلف

- حين حلّ السيف على الصيف، (شعر)، مع ترجمته إلى الفرنسية. دار الفارابي، بيروت، Le Sycomore, Paris ١٩٧٩.
- لا شيء يفوق الوصف، (شعر)، منشورات لبنان الجديد، بيروت ١٩٨٠.
- أنسي يلهو مع ريتا، كتاب البالغين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣.
- المستبد، (رواية)، دار أبعاد، بيروت، ١٩٨٣. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١.



- **فسحة مستهدفة بين النعاس والنوم،** (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٦. صدرت مترجمة إلى الفرنسية عن **Actes -Sud**، بعنوان **Passage au Crépuscule**، وبالإنكليزية عن دار **Press of texac university** ١٩٩٢. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **أهل الظل،** (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٧. صدرت مع ترجمتها الفرنسية عن **AMAM**، تولوز ١٩٩٧. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **تقنيات البؤس،** (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٩. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **غفلة التراب،** (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٩١. طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **أي ثلج يهبط بسلام،** (شعر)، دار مختارات، بيروت ١٩٩٣.
- **عزيزي السيد كواباتا،** (رواية)، دار مختارات، بيروت ١٩٩٥.

  (صدرت في ثماني لغات أوروبية هي:
  الإسبانية، الفرنسية، الإيطالية، الألمانية الإنكليزية الهولندية، السويدية، والبولونية، في سلسلة «ذاكرة المتوسط»).
  ـ طبعة ثانية، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١.
- **ناحية البراءة،** (رواية)، دار المسار، بيروت ١٩٩٧. وصدرت بالإنكليزية عن دار إنترلينك.
- **ليرننغ إنغليش،** (رواية)، دار النهار ـ بيروت، الطبعة الأولى



١٩٩٨، الطبعة الثانية ١٩٩٩، والثالثة ٢٠٠٠، وصدرت عن رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، في آذار/ مارس ٢٠٠٥، وصدرت بالفرنسية عن دار أكت ـ سود

- □ **تصطفل ميريل ستريب** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠١، وصدرت بالفرنسية عن دار أكت ـ سود، والإيطالية عن دار جوفانس، واليونانية عن دار كيدروس.
- □ **إنسي السيارة** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢.
- □ **معبد ينجح في بغداد** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥.
- □ **عودة الألماني إلى رشده** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، حزيران/ يونيو ٢٠٠٦.

صدرت بالألمانية عن دار سوركمب ٢٠٠٦.